وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

اعترافات متسكع دمشقي

أحزان وهموم متوحّشة
عن الحب والموت والجنون...

قصص

سُهيل الشعَّار

اعترافات مُتسكّع دمشقي

أحزان وهموم متوحّشة

عن الحب والموت والجنون...

تصميم الغلاف
علا حسام الدين

سُهيل الشعَّار

اعترافات مُتسكّع دمشقي

أحزان وهموم متوحّشة
عن الحب والموت والجنون...

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

اعترافات متسكع دمشقي: أحزان وهموم متوحشة عن الحب والموت والجنون... / سُهيل الشعار .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٢.- ٢٢٤ص؛ ٢٠سم .- (قصص).

١-٨١٣،٠١ ش ع ١١ ٢ – ٨١٣،٠٠٩٥٦١ ش ع ١١
٣- العنوان ٤- الشعار ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص

الفئران

الشيءُ الوحيدُ الذي يميّز صفية عن بقيةِ خلقِ الله، هو كرهُها الشديد للفئران... ما إن تجد فأرة حتى تَهُبَّ واقفةً، تغلق الأبواب والنوافذ والبالوعة الصغيرة، ثم تعلن حالة الطوارئ داخل المنزل.

في ذلك الصباح، لم تعد من عند جيراننا حتى قبضت على الفأرة المسكينة وخنقتها.

كانت لها طريقةٌ عجيبةٌ في مداهمة جحور الفئران والقبض حتى على أصغرها، وباتت أختي العانس أشهرَ من نارٍ على علمٍ، وأهم بكثير من مصائدِ الفئران ومخالب القطط وأنياب الأفاعي.

أولادُ عمي جميعاً والجيران والأصحاب يعرفون مهاراتها العجيبة، وهم لا يتورّعون عن طلب النجدة منها إذا لمحوا جرذاً أو فأراً يتنزّه داخل غرفهم، إنّما صفية كانت تعتقد أن مهمتها أوسعُ وأشملُ من الغرف والشرفات، فتمتدّ يدُها الماهرةُ في أحيان كثيرةٍ إلى الحدائق العامة والأشجار القريبة من منزلنا.

فذات يوم، وبينما كنّا نمشي في الحديقة، فجأةً تركت أختي يدي وركضت...

توقّف الناس خارج السور الذي يحيط بالحديقة بينما وقف أولئك الذين كانوا يجلسون على المقاعد الخشبية ليستمتعوا بتلك المطاردة الغريبة التي لم تدم سوى دقائق، حاصرت صفية الجرذ عند مدخل الحديقة الحديديّ، ثم أغلقت الباب على رأسه فهرسته بعنف!

ولا أعرف وقتها لماذا دفعتني رغبةٌ شديدة في البكاء، ثم وجدتُ نفسي أركضُ هارباً إلى المنزل.

لم تخبر أختي أبي عمّا فعلتُ، وكيف تركتُ يدها وهربت، وكادت سيارةٌ مسرعةٌ أن تدهسني.

لعلها كانت تريدُ معاقبتي بنفسها؟

لكنّها لم تفعل.

إنّما بدأتُ أحسّ بخوف من تصرفها، ورحمةٍ ممزوجة بشفقة مستمرة على حياة الفئران...

حتى جاء ذاك اليوم الذي وقفتُ فيه مدهوشاً أمام تصرّف أختي صفية من دون أن أعرف لماذا استولى عليّ حينذاك خجلٌ عميقٌ من نفسي، ولا يزال.

أيقظتها بهدوء:

صفية...

وعندما فتحت عينيها ابتسمت في وجهي ابتسامة طبيبة وسألتني عمّا أريد.

- اسمعي... هناك أصواتٌ في السّقيفة...

انصتت لحظةً... ثم نهضت فجأة وقالت وهي تتناول العصا المركونة عند الباب:

هيا... اتبعني...

سرتُ خلفها كأنني أسيرُ في حُلم، وضعت صفية السلّم الخشبي على فوهة السقيفة، وطلبت مني وهي تصعد:

امسكه جيداً وإلّا سقطت.

وحين وصلت إلى مدخل السقيفة المظلم أضاءت المصباح الذي كانت تحمله معها أينما ذهبت.

وفجأة صاحت مندهشة:

فأرة... إنها فأرة... آه ما أكبرها اللعينة !!

كم تمنيّتُ أن تهرب الفأرة في تلك الدقيقة، ورغم أنني رحتُ أرفع صوتي بما يشبه الصّراخ، لكنّ الفأرة المسكينة بقيت جامدة في مكانها كأنّها كانت تدرك مصيرها وقدرها المرسوم لحياتها.

في العادة كانت أختي تعود بالضّحية وقد هرست رأسها أو جسدها، أما هذه المرة فقد تغيّرت اللعبة.

دخلت صفية إلى بطن السقيفة حيث كانت الفأرة تصرخ وتصوصيء بخوف...

وبعد قليل رأيتُ صفية وهي تحمل بين كفيّها الكائن المسكين.

سألتها وأنا أضغط بيدي على أدراج السّلم العتيق:

ماذا... هل ستشوينها هذه المرة؟!

لكنني سمعتُ صوتاً رقيقاً عطوفاً لم أسمعه من صفية طيلة حياتي:

المسكينة... إنها بحاجة إلى مساعدتنا.

لم أصدّق...

نزلت أختي على السلم بهدوءٍ وحذرٍ، وفوق خرقة سميكة وضعت الفأرة بحنان ورفق شديدين، بينما شرعت دمعتان كبيرتان تتكوّران داخل عينيها.

ومن مكان ما في جسد الفأرة الكبيرة، راحت تخرج الفئرانُ وردية اللون، ناعمة وطرية، كقطعٍ من العجين...

* * *

القفص

كان اعتزازنا بأنفسنا كبيراً، عالياً كالقمم، صُلباً كصخور البازلت، وكنّا نحسّ الأرض ترتجف لوقع أقدامنا إذا مشينا، وكل غابة ندخلها، كانت تنحني أشجارها وأعشابها احتراماً لبنادقنا، وترتعشُ الطيور والحيوانات إذا تشمّمت رائحة عرقنا.

نحن - الثلاثة - أصبحنا شباباً مشهورين في بلدتنا وفي القرى المجاورة، سمعتنا الطّيبة، الممزوجة بالقسوة والعنف في اصطياد الثعالب البّرية والطيور الكاسرة، انتشرت على كل شفّة ولسان...

وحدث ذات يوم أن قصدنا أحدهم من قرية نائية، ليشكو من ذئب متمّرد كبير، يفتك بالماشية، ويروّع الأهالي، وطلب الرجل منّا القبض على الذئب حيّاً لكي يجعله عبرةً لمن يعتبر، وفرجة وأضحوكة للصغار.

وقد عرض الرجل علينا مبلغاً كبيراً من المال إذا نجحنا في مهمّتنا.

أغرانا العرض، وتحوّل تفكيرنا بالتباهي بالقوة والفتك بالحيوانات إلى ابتداع الحيلة والخديعة، فثمن الذئب حيّاً يفوق ثمنه ميتاً، إضافة إلى ازدياد شهرتنا إذا حدث وأمسكنا بذاك الوحش.

تجربتنا الماضية في صيد وقتل الحيوانات الضّعيفة بأعصاب باردة جعلتنا نؤمن بقدراتنا، إلى درجة أنّنا أكدنا لصاحبنا أنّنا إذا لم نمسك بالذئب حيّاً سوف نترك مهنة الصيد إلى الأبد.

دفع الرجل بعض النقود كعربون، وقمنا بإحضار قفصٍ كبير، صنعناه وجهزّناه لاستقبال ضيفنا الكبير في ساحة البلدة.

نصبنا شركاً في البريّة، ووضعنا بداخله طعماً مغرياً...

ومضت الأيام...

ثم الأسابيع...

ولم يظهر الوحش...

وراحت سمعتنا تخفت وتتلاشى بين الناس، وعاد الرجل ليطلب منّا النقود، فرجوناه أن يمهلنا عدة أيام، فقبل على مضض.

-٢-

وما هي إلّا أيام معدودة حتى وجدناه عالقاً في الشّباك.

كان كبيراً... أكبر ممّا توقّعنا، مُرعباً وشرساً، مُتجهماً لدرجة أننا امتنعنا في أحيانٍ كثيرة عن النّظر إلى عينيه مباشرة.

حملناه بواسطة رافعةٍ، وعدنا إلى ساحة البلدة فرحين بصيدنا، تجمهر الناسُ حولنا غير مصدّقين !!

طلبنا منهم الابتعاد... ولحظة اقترابنا من القفص هدأ الذئب قليلاً، وشرع يجولُ بعينيه في وجوهنا المبتسمة وكأنه يتساءل بينه وبين نفسه:

ماذا ستفعلون بي يا جبناء؟!

في هذه المرة، تأمّلناه جيداً... حدّقنا به طويلاً... لم نكن نعرف أن في الحياة مخلوقاً مرعباً وقاسياً إلى هذا الحد.

عيناه جمرتان كبيرتان متوهّجتان كنجمتين مشعّتين، أنيابه حادّة، رماديةٌ، تنمُّ عن كثرة ما فتكت بالآخرين.

ولكي لا نضيّع الوقتَ، طلبنا من سائق الرافعة التراجع إلى الوراء...

شغّل السائق المحرك وبدأت الرافعة ترجع بهدوء... بحيث يسهل إدخال الذئب مع الشبك إلى القفص، ومن ثم بطريقة ما نقطع حبال الشرك ليتحرّر الذئب تماماً.

هكذا كان من المفترض أن تسير خطّتنا... وفي تلك الدقيقة والتي لم يكن لأحد أبداً توقّعها، انقطع الحبل وسقطت الشبكة مع الذئب على الأرض.

مضت لحظات قليلة... بعدها شاهدناه واقفاً في مواجهتنا، وقد تحرّر تماماً من القيد.

لم يهرب.

وقف يتأمّلنا ويراقب خوفنا الذي ظهر على وجوهنا التي كانت تبتسم ساخرةً منه قبل قليل...

نزل السائق وهرب نحو القفص... وبغير إرادة منّا وجدنا أنفسنا نركض معه... دخلنا القفص مذعورين وأغلقناه علينا، في حين بدأ الناس بالهرب والصّراخ...

عمّت الفوضى المكان، وبقي الذئب متماسكاً كرجلٍ حكيم.

دار حولنا...

اقترب من قضبان القفص الحديدي الكبير وراح يشمُّها...

استدار... ثم بال عليها ومضى...

* * *

ذاك الكرسي الصغير

ابتسم السيّد جوزيف، الجالس إلى جانبي قبل أن تصلَ الحافلة إلى الموقف القريب من منزله.

كان السيد جوزيف موظفاً في القسم الذي أعمل فيه بشركة طحن الحبوب.

رجل متواضع، بسيط ومثقّف، له من العمر حوالي خمسة وأربعين عاماً.

كبرت ابتسامته حين وقفت الحافلة وهمّ بالنزول...

إنه كذلك.

يبتسم دائماً قبل وصول الحافلة إلى جانب منزله...

وفي إحدى المرّات، عرفتُ السبب.

رأيتُها...

طفلة شقراء بعمر الزهور، وديعة كعصفور صغير، وجهها كملاك له أجنحة.

كانت تجلس هناك عند باب البيت، تلوّح بيدها الناعمة كجناح فراشة للحافلة وهي تنطلق بنا...

وقد بقيت صورة تلك الطفلة عالقةً في مخيّلتي ومطبوعة كوشم صلبٍ يرفض الزوال والتلاشي.

كنت أرغب دائماً في سؤال السيد جوزيف عن تلك اللعبة الشقراء الجميلة، أتحيّن الفرصة، ريثما جاء يوم وسألته عنها، فقال لي إنها ابنته الوحيدة، وحين أبديت دهشتي واستغرابي من كون أسرته صغيرةً، أجابني:

جاءت أمل بعد انتظار طويل، وعلاج أطول.

لم أفهم قصده...

ولم أبادر إلى الدخول في التفاصيل والأسباب، فقط رحتُ أشاركه ابتسامته كلّما عادت بنا الحافلة إلى منزله، وأحياناً كنتُ ألّوح لأمل من خلف الزجاج بمودّة كبيرة...

-٢-

تطوّرت علاقتي بالسيد جوزيف، ودعاني أكثر من مرةٍ لزيارته... وذات يوم، زرته حاملاً معي لعبةً صغيرةً لابنته الوحيدة أمل.

فرحت الطفلة كثيراً بالهدية، رفرفت بيديها الصغيرتين كأنّها حمامة بيضاء تودّ أن تطير مع دميتها الملونة...

شكرني السيد جوزيف وزوجته منى كثيراً. وأكّدا لي أن حياتهما أصبحت رائعة، وأكثر متعةً بقدوم صغيرتهما.

وبقيت جملة في رأسي قالتها السيدة منى:

كانت حياتنا موتاً بطيئاً... ومتنا ألف مرة قبل أن تأتي أمل.

ورغم فرحي بتلك الزيارة،عدتُ إلى منزلي حزيناً كغيوم كئيبة بلا مطر، هشّاً، متهافتاً كأوراق يابسة تستعد للسقوط والانهيار، لم أكن أعرف أن الطفلة الوديعة على هذه الصورة، وليتني لم أزر منزلها!

ليتني بقيت بعيداً هناك... هناك خلفَ زجاج الحافلة!!

لكن حبي لأمل دفعني إلى معاودة زيارة أهلها كلّما سنحت لي الفرصة.

كنت أحمل معي للسيد جوزيف الحلوى ليعطيها إلى ابنته، وكانت أمل تعرفني حين كنت أزورهم، تفرح بي وتضحك عندما أركض وأدور من حولها...

-٣-

إنه شهر كانون الثاني...

والثلج يتساقط...

يتساقط كأنه قرّر أن يكفّن كل شيء حيّ ...

انقطعنا عن الدوام لمدة يومين...

عدنا بعد العاصفة الثلجية...

عدنا ولم يعد السيد جوزيف...

سألتُ عنه، فقال لي الجيران إنه ذهب إلى بلدته البعيدة ليبيع قطعة الأرض المتبقية له.

انقطعت أخباره عني، فأحسست بفراغ مخيف حزين.

وبعد ثلاثة أشهر، عاد السيد جوزيف إلى العمل، وقد شحب وجهه كثيراً ونحف، وماتت ابتسامته الطيبة، وتلاشى الفرحُ من قسمات وجهه، اختفى من عينيه الصغيرتين ذلك البريق الذي يفيض بالسعادة.

وحين كانت الحافلة تعود لتنزله إلى جانب منزله، كانت تقف هناك، عند الباب، زوجته منى، وإلى جانبها ذاك الكرسي المتحرّك، فارغاً، حزينا، على الصغيرة التي كانت تجلس فيه ذات يوم!

* * *

الغول

كنّا نخاف منه نحن الأولاد وندعوه:

الغول.

أمي وأخوتي الكبار يهدّدوننا به كلّما تشيطنا، أو تسلّقنا الأشجار ورمينا المشاة بالحجارة وقشور البزر...

والغول.

رجل نحيف، قصير ومضغوط كبرميل من تلك التي يُوضع بداخلها الخيار والفواكه لتصير مخلّلاً، والشيء الذي يتميّز به، هو عينه الكبيرة، والوحيدة الباقية له، يرى فيها الأشياء، ويرانا... أمّا العين الثانية، فقد انتُزعت من مكانها بطريقة عجيبةٍ، ولا نعرفُ لماذا، رغم محاولاتنا، وكثرةِ أسئلتنا...

الكبار يتمنّعون عن ذكر السبب، وإذا ألححنا في السؤال، سمعنا أحدهم يقول:

كفى ... كفى يا قرود... وإلّا ناديناه !!

فنصمت...

ونتخيّل عيوناً جميلة، ملوّنة، كانت ذات يوم على وجوه طيّبة وغابت وانطفأت ذات صباح، لأسباب نخاف أن نذكرها، أو نتخيّلها.

كان الناس يتصدّقون عليه، وعلى أمّه العجوز، وبعضهم، كان يركله ويرميه بقشور الموز والبطيخ... فيجمعها ويأكل بعضها وهو يضحك...

في ذاك اليوم البعيد، استيقظنا كعادتنا في كل صباح، غسلْنا وجوهنا، وارتدينا ثيابنا المدرسية، شربنا الحليب ومضينا...

وعند الظهيرة عُدنا...

وقريباً من منزلنا، رأينا امرأة تخرج من باب العمارة، حافية القدمين، تصيح وتصرخ، وتستغيث...

اقتربنا أكثر...

شممنا رائحة حريق ودخان...

وسمعنا المرأة الراكضة من حولنا تصرخ:

يا ناس... بيتي يحترق... يا عالم... يا ناس...

تجمّع المارّة بسرعة حول المرأة التي جلست على الأرض، وراحت تنتفُ شعرها...

وتعالت الأصوات:

اطلبوا الاطفائية يا شباب...

اتصلوا بالنّجدة يا جماعة...

ركض البعضُ في اتجاهاتٍ مختلفةٍ...

حتى تلك اللحظة، لم يتوقّع أحدٌ مفاجأة أخرى سوى قول المرأة المنتحبة:

«دخيلكن يا ناس... ابني في غرفة النوم!»

ذُعر الجمع... وانتشر الاضطراب ممزوجاً برائحة الحريق الذي غطّى دخانه المكان...

وعادت الأصوات لتعلو:

يا لطيف... بسرعة يا «إخوان» اتصلوا بالنجدة...

بسرعة يا جماعة... الوقت يمضي...

ازداد تجمّع الناس حول المرأة، وازدحموا هناك قرب باب العمارة، يتهامسون، ويتفرّجون منتظرين رحمة الله وفرجه...

وفجأة رأيناه...

لم يلحظه أحد حين دخل.

ظهر من هناك، من باب العمارة يحمل بين ذراعيه طفلاً يبكي...

لأوّل مرة، نرى أنفسنا نركضُ نحو ذلك الذي أخافنا لسنوات وسنوات...

منذ ذاك اليوم، بدأنا نحبّه... نلاطفه ونلعب معه... وأحياناً نذهب إلى بيته الطيني القديم، حاملين معنا بعض الطعام، فيأخذه منّا، يهزّ رأسه، ثم يضحك... دون أن نعرف إذا كان يضحك لنا، أو علينا !!

* * *

الفخّ

شهقت الطبيعة شهقة عميقة، وطويلة، ثم تنفّست رياحاً عاتيةً عصفت في وجوه الأشجار والنوافذ.

كانت ليلة موحشةً من ليالي آذارَ، لم يترك الثلج بقعة في البلدة إلّا وكفّنها..

صعد أبي إلى السقيفة وأخرجه من هناك، مدوّراً، كبيراً، وأسنانه حادة.

- هذا الفخ كان لجدّكم، أحضره من فلسطين حين ذهب مع الثّوار.

- ولماذا أحضرَ فخّاً ولم يحضر عروساً حلوة؟!

ردّ والدي:

كان جدّكم قد تزوّج قبل ذهابه بثلاثة أشهر، وحين عادّ جلبَ معه هذا الفخ كذكرى من فلسطين.

ثم تابع والدي حديثه كأنه يحكي مع نفسه:

وجود الفخ ضروري لكلّ منزل، على أن يبقى مفتوحاً، «فالفخّ المطبق لا يصطاد الثعالب»

في أيام الثلج والعواصف، كان جدّكم يُخرج الفخ من السقيفة، يغسله، ويمسح أجزاءه، ويلمّع أسنانه، ثم يفتحُ الباب شاقاً طريقه إلى الغابة... وكانت جدّتكم تنتظره على جمر من خوف وقلقٍ، وفي الصباح يعود، حاملاً على ظهره ضبعاً، أو وعلاً شرد عن القطيع.

وذات صباح أحضر لنا ذئباً رمادياً كبيراً، سلخ جلده وصنع منه عباءة، ثم وزّع اللحم الأحمر على الجيران والأصحاب...

ثم قال أبي وهو يتأمّل الفخ:

لحم الذئب يُكسب المرء النخوة والشجاعة، إنما من يصطاده ليس بالضرورة أن يكون شجاعاً، يمكن لأي طفل في البلد معه فخ أن يصطاد ذئباً أكبر منه، فمن يملك السلاحَ يمكن أن يكون ضعيفاً، ومن يُقتل قد يكون قوياً.

-٢-

كان جدّي قد رحل منذ عدة سنين، تاركاً لنا هذا الفخ العجيب الصدئ، ذا الأسنان المتآكلة من كثرة ما أطبقت على الوحوش...

لمّعنا أسنانه وجلوناه، حتى بات كقطعة من الفضّة.

أمسكه والدي وسأل:

ها... مَنْ هو البطل الذي سيرافقني إلى الغابة؟

قفزت بفرح:

أنا ... أنا .

كانت الغابة كبيرة، زادتها الثلوج إلفةً وروعةً، وبين لحظة وأخرى كانت الأرانب البريةُ تقفزُ من حولنا... لم أعرف تماماً حتى تلك الدقيقة ماذا سيفعل أبي بالفخ، هل سينصبه للضّباع والذئاب لتزداد شجاعتنا بعد أكل لحمها الأحمر؟

وحين سألته أجاب بخبث:

- لا... الضبعُ الذي سنصطاده لا يُؤكل لحمه.

- لماذا؟

- لأنه يسرق أغنامنا

لم أفهم...

الذئاب أيضاً تسرقُ أغنامنا، ومع ذلك نأكل لحمها.

كان قطيعنا يتناقص باستمرارٍ... كلّ عدّة أيامٍ نفقد نعجة، حتى بات رغيف خبزنا من الحليب مهدّداً بالانقراض والذوبان.

وقفتُ عند باب الحظيرة، بينما راح والدي - على بعد عدّة أمتار - يحفر في الثلج القاسي المتصلّب، مكاناً للفخ...

دفنه ثم عاد:

بعد قليل سوف ينهض هذا القرد الميت ليقبض على قرد حيّ.

قلت:

لا أظن ذلك يا أبي، الضباع والذئاب تعرف طريقها جيداً، فقد تشمّ رائحة الفخ أو تلاحظ أن هناك من عبث بهذه البقعة من الثلج، وربما تتحاشى المرور فوقها.

لم يجب والدي على هذه التّوقعات، أمسكني بلطفٍ من يدي وخطا فوق الثلج... ورحت أثناء ذلك أرسمُ صوراً في رأسي

لضباعٍ وذئاب متوحّشة، تهاجم قطعان الماشية وتفتك بها... ولم نكن نملك سوى فخٍ وحيدٍ، والضباع كثيرة، والذئاب أكثر...

نهرني صوت والدي:

ما بك ؟ لماذا لا تمشي بسرعة، أيعجبك التّنزه في هذا الصقيع؟

اختفت فجأة صورةُ الوحوش من رأسي، وظهرت أمامي سجادةٌ من الثلج الأبيض السّميك، فشددت أعصابي وركضت خلف أبي...

-٣-

ومرّت عدة أيام... ثم أسبوع...

وذات ليلة، قبل الفجر، والثلج يتساقط بكثافة، فجأة سمعنا صراخه...

قفز والدي عن السرير، تناول بندقيته وانطلق... فالذئاب والضباع لا تقتلها أسنان الفخ، فقط تُعيق حركتها وتقدّمها.

ركض أبي وأنا من خلفه... أشقّ طريقاً جديداً في الثلج الذي تكوّن خلال الليل.

وكلّما اقتربنا كان الصوتُ المذعورُ والمتألم إلى حدّ الفزع يكبر ويزداد حدّةً وألماً ليملأ كل الغابة...

فجأة، صوّب والدي بندقيته وتسمّر.

حتى الرياح توقّفت، وكفّ الثلج عن التساقط وهدأت الطبيعة، كأنها لم تكن في يوم من الأيام تتوقّع مثل هذه الخيانة.

صاح والدي غير مُصدّق:

يا حيف... هذا أنت يا أبا فارس؟!

وجاء صوت عمّي مرتجفاً، خجلاً من نفسه:

سامحني يا أخي... سامحني...

ومن دون شعور، كأنه أراد الانتقام على طريقته، رفع والدي بندقيته نحو الفضاء وشرع يطلق النار، تعبيراً عن غيظٍ طاغ لا يمكن احتماله...

* * *

الوحل

لم يدفع الإيجار للسائق...

لعله نسي ذلك أو تناسى... أم أن الطبيعة الهائجة شغلته، أو تشاغل بها...

بقي صامتاً، يتأمل أوراق الأشجار المذعورة، والأغصان الراقصة بهلعٍ من وراءِ الزجاج. وفي الفضاء البعيدِ كان ثمّة برقٌ ما، وغيومٌ سوداء فاحمة.

قال أحد الرّكاب متذمّراً:

أسرع يا أخي... أسرع...

قال السائق:

لا يزال هناك راكبٌ لم يدفع؟!

وساد صمتٌ قطعه عصفُ الرياح وهدير الرعد...

عاد السائق ليسأل مرة أخرى وهو ينظر في المرآة:

يا شباب... لا يزال هنالك راكبٌ لم يدفع، الغلّة ناقصة!

فجأة صاحَ أحدهم:

أنا يا أخي، أنا لم أدفع.

- ولماذا؟!

وتعالت الأصوات مستغربةً، محتجّة:

لماذا لم تنطق، نحن ندفع عنك.

قال آخر:

الحافلة لا تنقل الناس مجاناً.

قال الرجل كأنه يعتذر:

أعرفُ، أعرف أن الحافلات لا تنقل الناس مجّاناً.

همس أحدهم:

دعوه يا أخوان... دعوه...

وتابع هذا الأخير كلامه همساً في أذني:

هذا الرجل لا يدفع، دائماً يفعل ذلك، يظن أن السائقين يعملون لديه.

ضحكتُ بيني وبين نفسي، وبقي الرجل صامتاً، وعاد ليحدّق في المطر الذي بدأ يتطاير من وراء الزجاج... إنه في

الثلاثين، أو الخامسة والثلاثين، نحيفُ الوجه، متجعّد الشعر، على وجهه بقع داكنة، كأنه أصيب بمرض ما، ولم يتبقّ منه حتى الآن إلّا آثاره.

-٢-

ربما أحدهم دفع عنه، لأن السائق لم يعدْ يتذمّر، وكفّ عن قذف ملاحظاته، وكأنني كنتُ أنتظر جواباً ما على تأمّلي لذاك الرجل، يقنعني بما راحت ذاكرتي تفكّر فيه منذ قليل...

لقد ظننتُ هذا الرجل محتالاً، أو بخيلاً، أو أنه يدّعي الجنون، ها هو أحدهم يقول لي:

الله يعين الناس، أنا أعرف هذا الإنسان جيداً، إنه جارُنا المجدوب.

- مجدوب؟!

- أجل، منذ أكثر من سنة أُدخل مشفى ابن سينا للأمراض العقلية، وخرج منه منذ أيام، يقولون إنه تعافى الآن، ولكن لا يبدو عليه ذلك، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي، وعدّتُ لأسرق النظر إليه، لا يبدو أبداً أنه مجدوب، لقد أخفى شكله الطيّب جميع مشاعره وأفكاره المضطربة.

مسكين، لعله فقد زوجته أو ابنه، أو ربما مات الكثيرُ من أهله وأصحابه.

إن الجنون تهمة جيدة لأولئك الذين يتألّمون من أجل الآخرين، ومن يدري، ربما كان هذا الرجل منهم.

في أوّل البلد توقّفت الحافلة فجأة، استطالتْ رقاب الرجال والنساء والأطفال لمعرفة السبب...

قال السائق:

يبدو أن الطريق مقطوع يا أخوان!

اقترب من الحافلة بعضُ رجال المرور، وطلبوا من السائق أن يسلك الطريق القديم، لقد قطعت العاصفة المحملة بالأمطار والرياح القوية بعض الأشجار، وأدت إلى انهيار أعمدة الهاتف والكهرباء، وقسم كبير من الجسر الذي يربط البلدة بالطريق العام.

والطريق القديم، طويلٌ ومُملّ، مليءٌ بالحفر

كانوا منذ أعوام قد بنوا جسراً ليختصر الوقت والجهد والملل... أمّا الآن، ها هو ذاك الطريق يبدو لنا الحل الوحيد، والأمل الأخير المؤدي إلى بيوتنا.

إنّ كلّ شيءٍ قديم، يصبح جديداً وجميلاً إذا احتجنا إليه، مهما كان قذراً، فالحاجة تخلق لنا عيوناً أخرى، غير تلك التي اعتدنا أن ننظر من خلالها.

ما إن انطلق السائق بضعة كيلو مترات حتى شرع الفضاء ينسج من حولنا شبكة بيضاء كثيفة من الثلوج...

فرح بعضهم بالمنظر، وتعالت بهجة الأطفال وغبطتهم...

وبعضهم انتابه القلق والاضطراب، فالبلدة لا تزال بعيدةً، والأضواء لم تظهر لنا حتى هذه الساعة، إنّما كلّ شيء سار على ما يرام حتى الكيلو مترات الأخيرة من البلدة، هناك، وفجأة، انحرفت الحافلة وغاصت عجلاتها في بركة من الوحل.

فشل السائق رغم إمكاناته وخبراته في السّياقة، فشل في إخراجنا من ذاك المستنقع الذي بدا لنا بسيطاً، وما إن طلب منّا النزول حتى شعرنا بالتّذمّر والقلق على مظهرنا وشعرنا وثيابنا وأحذيتنا الملمّعة... لكن بعضهم فعل، نزل وساعد السائق لدقائق معدودة ثم عادَ وهو يرتجف من البرد...

ودون جدوى حاول آخرون...

لاحت أمامنا البلدة على بعد عدة كيلومترات تنتظرُ، بدأ الرّكاب ينزلون الواحد تلو الآخر، بعضهم شرع يركضُ، والبعض الآخر حملَ أطفاله دون أن يكترث للثلج المنهمر، أو للسائق الذي ظلّ يطلب ويستجدي بعض المساعدة وهو يقف أمام الحافلة كأنّه يودّعنا، في حين بقي إلى جانبه ذاك الرجل المجدوب، يدفع بيديه جسدَ الحافلة البارد، محاولاً إخراجها من بركة الوحل تلك...

رحنا نركض... ونهرول نحو أضواء البلدة القريبة، وفي أعماق كل واحدٍ منّا بركة وحل، أشدّ قذارةً، وأكبر مساحة من تلك التي تركناها خلفنا...

* * *

برميل مازوت

في كل مرّة، كنت أرى فيها فتوح، بائع المازوت في بلدتنا القديمة، كانت ذكرى ذاك اليوم الأسود تصعد إلى رأسي لتحرق جزءاً منه، وتتلف أجزاءً كبيرةً من قلبي الحزين.

حدث ذلك منذ زمن بعيد...

أجل...

منذ زمن بعيد...

لكنني، كلما تذكرتُ، أشعر أن ما حدث منذ زمن بعيد، يحدث الآن... الآن تماماً.

-٢-

في ذاك الصباح الماطر، والبارد جدّاً، سمعتُ أمي تقول:

خلص المازوت !

- والحل؟

قالت:

اذهب وقل لفتوح أن يأتي ليملأ لنا البرميل، فتوح ابن حلال، وسوف يصبر علينا حتى آخر الشهر.

تثاءبتُ وقلت:

بصراحة... أنا نعسان، اذهبي أنتِ.

أصرّت... فذهبتُ .

وكان بيتنا قبواً مُعتماً، رطباً وبارداً حتى في أشدّ أيام الصيف حرارة وقيظاً.

وأحياناً كانت تتسرّب إليه مياه الشتاء، فنقضي عدة أيام، في نقل المياه خارجه... بعد أن تكون ثيابنا وأغراضنا البسيطة قد تبلّلت تماماً.

-٣-

عرفتُ - فيما بعد - أن أمي العجوز لم تكن تعرف أبداً كيف تقبض على الفرد - القبضة المرتبطة بالخرطوم -

أتذكّر ذلك الآن وأغصّ...

عندما جاء فتوح في ذاك الصباح، قلتُ بيني وبين نفسي، سوف أعاقبُ أمي على فعلتها، كان يجب أن تذهب هي إلى السيد فتوح، لأنني، بصراحة كنتُ متعباً، وبحاجة إلى النوم.

فكّرتُ بذلك قبل أن أنزل الدرج الضيق، حيث كانت العجوز تنتظر...

- تفضّلي...

أعطيتها قبضة فرد الخرطوم الطويل، ثم تابعتُ متقدّماً نحو برميل المازوت:

ضعي فوهة الفرد هنا، في فوهة البرميل، وحين تسمعين صوت المحرّك اضغطي هكذا...

قالت أمي:

يا ابني... في كل مرة أنت تفعل ذلك!

قلتُ:

صحيح... لكن هذه المرة سوف تقومين حضرتك بذلك.

- أنا لا أعرف؟

قلت بحنق:

لن أطلبَ منك اختراع قنبلة نووية، فقط اضغطي هكذا، واستمري في الضغط حتى أجيء إليك... ماشي؟

استجابت أمي لطلبي، فعدتُ إلى فتوح مسرعاً... سألني فتوح:

من سيضغط على الفرد؟

قلت:

أمي... شغّل أخي شغّل...

- أتعرف؟!

- ولو... طبعاً تعرف، أمي تعجبك، إنما لا تصلح زوجة، بصراحة، انتهت مدّتها.

ضحك فتوح كثيراً... ثم أدار المحرك...

وأعتقد بأن العجوز ضغطت على قبضة الفرد في تلك اللحظة...

وطال حديثنا...

وأخبرني فتوح قصّة حياته... كما كان يفعل في كل مرة...

- ٤ -

فجأة... صاح فتوح:

كم برميلاً تريد يا أخي ؟!!

ثم أضاف مذعوراً:

أصبح داخل قبوك يا أفندي أكثر من خمسة براميل..

- مـ .... ماذا قلت... خمسة براميل؟!!

هرعتُ نازلاً الدرج الضيق...

لم أستطع الدخول، لأن المازوت كان قد ملأ ثلاثة أرباع القبو تقريباً...

ناديتُ أمي.

ناديتها أيضاً بأعلى صوتي...

فيما بعد، انتشلنا جثّتها، كانت يدُها مُتشنّجة وقابضةً بشدةٍ على مسكة الفرد، وفوق وجهها ارتسمت خطوطٌ من اللّوم والصّياح والعتب!!

* * *

الغولة

هطلَ الثلجُ هذا المساء أيضاً...

وسُمع من وراء الجبل القريب عواء ذئب جائعٍ، وصراخ يشبه العويلَ، صراخٌ حادٌّ، جارح ومخيف، فتذكّرت فجأة حديث أحد رفاقي عن الغولة، وعن أسنانها الحادّة، وشعرها الأسود الطويل.

- جدتي... أنا خائف...

وكانت جدّتي جالسة قرب مدفأة الحطب، تحيك على ضوء القنديل المتراقص قميصاً صوفياً.

تركت السّنارة، ثم رفعت نظّارتها عن عينيها الصغيرتين:

بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم أضافت بعد قليل مستغربة:

خائفٌ؟! وممّن أنت خائف يا حبيبي؟!

- بصراحة يا جدتي، أخبرني رفيقي اليوم في المدرسة عن الغولة!

- لا تخف يا عيني... نم ولا تخف.

- جدتي: اسمعي هذا الصراخ، ألا يشبه صراخ الغولة؟

قالت جدتي وهي تعود إلى حياكة القميص:

لا يا صغيري... هذا صوت الريح.

لم أجبْ...

رحتُ أتأمّل الثلج الأبيض الناعمَ، الذي بدأ يتراكمُ فوق حافةِ النافذةِ الخشبية لمنزلنا القديم، البعيد عن القرية، والقريب جداً من سفوح الجبل الكبير، ولا أعرف تماماً لماذا شرع عقلي يفكّر، ويطرح أسئلةً صامتةً، وحائرة:

لماذا نحن فقراء؟

ولماذا لا يوجد عندنا مدفأة مازوت، بدلاً من هذه المدفأة العجوز التي تشخر كجدّتي؟

ثم لماذا لم يكن بيتنا هذا قريباً من القرية، ألهذا الحدّ كان جدي يحبُّ العزلة؟!

وشيءٌ آخرٌ، ربما يكون أكثر أهمية:

لماذا صُنعت نوافذنا وأبوابنا من الخشب؟ ألم يحسب جدي حساباً لتلك الذئاب الجائعة، وربما للغولة ؟!

نمتُ وبقيت تلك الأسئلةُ الشائكة، والمريرة، عالقة في رأسي وقلبي.

وفي ساعةٍ متأخرة من تلك الليلة سمعتُ صوتاً ينادي:

افتحي يا أم أسعد... افتحي، أنا جائعة... .

نهضت جدتي مذعورة، أشعلت القنديل، ثم اقتربت من الباب:

اذهبي عنا إلى الجبل... اذهبي، لا يوجد عندنا طعامٌ.

- أو... ووو... أووو... و... افتحي يا أم أسعد... افتحي...

ومن تحت اللّحاف قلتُ بخوفٍ:

جدتي... أنا خائفٌ...

عادت جدتي إليّ... ضمّتني إلى صدرها الصغير وهمست:

لا تخفْ يا حبيبي... لا تخف...

فغطّيتُ رأسي باللّحاف أكثر، وتكوّرتُ على نفسي كسلحفاة صغيرة، خائفة، إنّما لم أستطع أن أوقفَ أو أهدّئ من تلك الرعشات التي بدأت تنتابني...

وجاء الصوت مرة أخرى:

أوو... ووووو... و... افتحي يا أم أسعد وإلّا كسرتُ الباب!!

قالت جدتي:

لن تستطيعي... اذهبي عنّا يا ملعونة... اذهبي عنّا...

سمعتُ ضحكةً عالية مخيفة، ملأت الفضاء فجأة، وامتزجت مع نداف الثلج المتساقط بكثافة... ثم بدأت أظافرٌ طويلة، حادة وجائعة، تحفر تحت الباب الخشبيّ القديم...

رفعتُ اللّحاف عن رأسي قليلاً، فرأيت جدتي تسرعُ نحو بابور الكاز، أشعلته ثم وضعت على ناره الزرقاء القوية خنجراً طويلَ النّصل، كان جدّي يحمله معه أينما ذهب.

-٢-

كان جدي قوياً، ويقال إنه قتل ذات ليلة غولة كبيرةً، جاءت من الجبل القريب، غرس جدي نصل خنجره في صدرها، فصرخت

الغولة صرخة مدوّية، ثم هربت إلى الجبل، لكن جدي تبعها لأن خنجره بقي عالقاً في صدرها بين اللحم والعظامِ، ويقال أيضاً إنّ جدي تعارك مع الغولة عند سفوح الجبل، ولم يستسلم حتى استطاع أخيراً أن يقتلها ويستعيدَ خنجره.

«وقال لي رفيقي في المدرسة، إن والده مدرّس التاريخ كان يعرف جدي جيداً، وقد أخبره عن غولةٍ جاءت إلى بلادنا ذات يوم، قادمةٍ من أماكنٍ مجهولة، ثم بدأت تهاجمُ الماشية والرعاةَ، وتفترس كل من يعترض طريقها، ولم تكن تكتفي بما تأكلُه، بل كانت تقتل بقية الماشية، وتقبض على الرعاة وتمتصُّ دماءهم.

بيد أن جدي استطاع قتلها ذات ليلة... إنما غولةٌ أخرى ظهرت على سفوح الجبل الكبير، غولةٌ كبيرةٌ وشرسةٌ... فحاولوا قتلها ونجحوا... وكلّما قُتلت واحدةٌ ظهرت أخرى... أشدُّ فتكاً وشراسةً.

وكانت الغولةُ تأتي من أماكن بعيدة، وقد أحبّت بلادنا، فأخذت لنفسها مكاناً على سفوح الجبل، وداخل مغاراته العميقة المظلمة، ويُقال إن غولاً جاء ذات ليلةٍ دامسةٍ والتقى الغولة

فأُعجب بها وتزوّجها... ثم بدأ نسلهما يتكاثر... ولكن فيما بعد، جاء أكثرُ من غولةٍ وغولٍ من بلادٍ بعيدة، مُتفرّقة، وكانوا ملوّنين لا أصل لهم ولا فصل، أسّسوا قبيلة متوّحشة، بدأ أفرادها يهاجمون الرعاة والماشية والقرى بعنفٍ وقسوة»

-٣-

- جدتي... أنا خائف...!!

إنّما جدتي لم تسمع هذه المرة، كان صوتُ البابور عالياً، صاخباً، ولا أعرف تماماً كم مضى من الوقت وجدتي جالسةٌ قربَ الباب تنتظر رأساً ما، وفي يدها الخنجر وقد أصبح نصلهُ متوهّجاً كالجمر.

بيد أن الذي حدثَ لم يكن متوقّعاً أبداً...

فجأة... خُلِعتْ النافذةُ الخشبيّةُ، وقفزَ منها شبحٌ ما، طويلٌ، يكسو جسمَه شعرٌ أسودُ قاسٍ، انقضّ على جدتي وحاول خنقها...

لكن جدتي، استدارت بصعوبةٍ وغرستِ الخنجر في الجسد المتوحّش...

سمعتُ بعد ذلك بلحظاتٍ سريعةٍ احتراق الشعرِ، ثم شممتُ رائحته الكريهة، وما لبث الجسدُ الضخمُ المخيف أن سقط على الأرضِ مُطلقاً صراخاً مرعباً **...**

قالت جدتي وهي تبتعد تاركةً الخنجر مغروساً داخل الجسد**:**

لقد ماتت اللعينة**!**

إنّما تذكّرتُ في تلك اللحظة، أن غولةً أخرى ربما تكون الآن في طريقها إلينا**...**

غولةً، أشدَّ فتكاً وشراسة**...**

*** * ***

انتظار

كنتُ أراهم دائماً من وراء نافذتي الصغيرة... يأتون باستمرارٍ، في الوقت المحدّد تماماً، وأحياناً قبل الموعد بربع ساعة.

ابتسم بغبطة...

أنا التي لم ينتظرني أحد، ها هم يأتون لينتظروني أنا شخصياً، هذا هو الشيء المهم في حياتي الآن، الانتظارُ.

الهاتف هو صلة الوصل بيني وبينهم... أرفعُ السماعةَ كلَّ صباحٍ، أطلب رقماً لا على التّعيين... أغلقُ الخط فوراً في وجهِ الأصوات النسائية، لكن حديثي يطول، ويطولُ... إذا كان الصوت لرجلٍ ما، رجلٍ لا على التعيين.

وكنت أكرّر الكلام نفسه:

صباح الخير.

وحين يردّ الطّرفُ الآخرُ التحية، أتابعُ:

صوتك جميلٌ... كم عمرك؟

كنتُ أقول ذلك لجميع الأصوات، الجميلة وغير الجميلة، وكنت أشعرُ في كثير من الأحيان، أن غبطةً عظيمةً زلزلت كيان صاحب الصوت، فأتابعُ الحديثَ دونَ الإشارة إلى اسمي، أو رقم هاتفي، أو اسم المكان الذي أتكلّم منه، فقط كنّا نتحدّث عن أمورٍ عديدة... ليس لها عناوين أو أماكن محدّدة... أمور تجري دائماً في حياة الناس، خصوصاً تلك التي تدور حول الزواج والحبِّ، والأولاد والطلاق والمستقبل، وأزمة السكن والبطالة...

وفي نهاية حديثنا، كنت دائماً أضربُ موعداً مع صاحب الصوت:

هل يمكنني أن أراك؟

وكان صاحب الصوت في غالب الأحيان يؤكِّد ويصرُّ على ذلك:

طبعاً... طبعاً... بكلِّ تأكيد.

- حسناً... غداً الساعة التاسعة والنصف صباحاً، في حديقة الأمل.

وأحياناً كنتُ أشرحُ لصاحب الصوت العنوان بالتفصيل...

-٢-

كلُّ الذين وعدتُهم لم يتأخّروا أبداً.

كانوا يأتون دائماً، وفي الوقت نفسه...

كنتُ أراهم من وراء النافذة... أقرّب الكرسيّ وأبدأ بتأمُّل كلّ رجلٍ يصل إلى الحديقة المجاورة لمنزلنا...

ودائماً كنتُ أطلبُ من ضيفي أن يضع نظارةً سوداء، وأن يحمل مظلّةً ملونةً.

بعضهم كان يعترضُ على هذا الشّرط الأخير، خصوصاً أيام الصيف، فمن الغريب أن يحمل الشباب مظلاتٍ ملوّنة!

لكنني كنت أصرُّ على ذلك، وأُؤكّد أنني لن آتي إذا لم يحمل ضيفي مظلة ملونة، ويطبّق شروطي بحذافيرها.

ولسببٍ ما، كنت أضحك وأنا أرقبُ ضيفي وهو يسير أمام باب الحديقة وينتظر...

أحياناً كان يملُّ من السير، فيمشي بين المقاعد الخشبية ثم يختار أحدها ويجلس...

يجلسُ لينتظر...

لينتظرني أنا شخصياً، أنا ولا أحد سواي، دون أن يعرف أنني حزينة جداً ومنكسرةٌ من هذه الحياة الكئيبة التي أحياها منذ أكثر من خمس سنوات، حزينة ولا أستطيع المجيءَ!

-٣-

لكنّ أحدهم جعلني أذهب إليه...

أنا التي لم أخرج من فترةٍ طويلة، أجد نفسي في هذا الصباح المشرقِ بالضوء والأمل والحب، أصرَّ على الخروج.

توقّفت سيارة التكسي الصفراء، وخرجت منها سيدة تبدو في الخمسين من عمرها، سحبت كرسيّاً من داخل السيارة، ثم ساعدتِ الشاب على أن يجلس عليه.

وبحركة سريعة ولطيفة، وضع الشاب النظارة السوداء فوق عينيه، ثم فتح المظلة الملونة، أمسكها باليد اليسرى، أمّا اليد الأخرى فقد حرّك بها دولاب الكرسيّ المتحرّك وأسرعَ نحو باب الحديقة...

ها أنا، أطلب من أمي وأختي أن يحملاني مع كرسيي إلى باب الحديقة...

* * *

الذئب الأزرق

في هذا الشتاء، تساقطت ثلوجٌ غزيرةٌ فوق التلال والقرى المجاورة لبلدتنا البعيدة، وفوق سفوح جبل الشيخ المرتفع، حملت رياحٌ شرسةٌ عواءَ الذئاب القادمِ من خلف التلال والجبل الكبير.

همست جدتي المختبئةُ قرب مدفأة الحطب:

إذا استمرّت الثلوج بالتّساقط فإن الذئاب ستهجم على البلدة.

- ولماذا ستهجمُ؟!

- في مثل هذا الجو المثلج تجوع الذئابُ، فلا تجد شيئاً تأكله سوى بني آدم!

كانت جدتي تقول ذلك في كل شتاء... وكانت تزداد التصاقاً بالمدفأة السوداء القديمة، كأنها تحمي نفسها من جوع الذئاب وغضبها.

لم تكن جدتي كبيرة في العمر، بيد أني كنتُ أحسّ أنها تجاوزت المئة عام، من خلال ما ترويه لنا من قصص وحكايات عن الجن والسّعادين، وأيام الحرب والجوع، دون أن تنسى الذئب الأزرق.

كانت رياحُ الشتاء قوية في الخارج، غاضبةً ومتذمّرة كذئبٍ جائعٍ، راحت الجدة تغفو... لكنها استيقظت بعد قليل مذعورةً بسببِ انطفاء المدفأة واشتعالها فجأة.

اقتربتُ منها وسألتها:

جدتي... كم عمرك؟

- «يقصف رقبته بليس اللعين... شوبدّك بعمري يا سعدان؟!»

ضحكتُ مبتعداً عنها بعد أن مدّت يدها الخشنة لتقرصني.

- طيّب... طيّب يا جدتي، غداً سأذهب إلى دائرة النفوس وأسأل عن هذا الموضوع.

- لن يقولوا لك عن عمري، وإذا قالوا لك سوف أخرب بيتهم.

- ولماذا؟

- لأنني أوصيتهم بألّا يقولوا عن عمري لأحد.

قلت:

معك حق، النساء يخفن دائماً من هذا السؤال!

ابتسمت الجدّة... ثم عادت لتغفو مرّةً أخرى...

- ٢ -

حملتِ الرياحُ عواءَ الذئاب البعيدة مرّة جديدة... وبقيت الثلوج تتساقط بكثافة فوق بلدتنا النائية، وعلى سفوح التلال وجبل الشيخ المكلّل منذ العام الماضي بالثلج والرياح والصقيع.

ذات يوم، أخبرتني جدتي عن ذئب أزرق...

قالت إنها رأته في إحدى الليالي المثلجة قرب بيتنا الطينيّ القديم.

كان كبيراً وجميلاً، وأكّدت جدتي أن مثل هذا الذئب لا يظهرُ في هذه الأماكن إلّا كل عشرين عاماً...

كل عشرين عاماً يظهر مرّةً، ومن يره يعشْ طويلاً. ولا يمت إلّا إذا رأى ذلك الذئب الأزرق مرة ثانية.

كنتُ أحلم في ليالي الشتاء بهذا الذئب، وأتمنّى رؤيته، لا أريدُ من تلك الرؤية أن أعيش طويلاً، فقط كنتُ أتمنى أن أراه.

قالت جدّتي:

إن ذاك الذئب لا يأكل الماعزَ أو الغنم، ولا يهاجم الرعاة أبداً، ومن يره مرة أخرى لا يسلم منه، فقد حدث ذات يوم ورآه الراعي رثعان، فرح الراعي كثيراً وطار من السعادة لأن الذئب بقي معه ومع القطيع طوال ذاك النهار يرقبه ويحميه من الذئاب المفترسة.

وقد عاش رثعان طويلاً...

لكن في يوم مثلج وُجد ميتاً، ويقال أنه شاهد الذئب الأزرق مرةً أخرى...

إن الذئب الأزرق يفترس كل من يراه مرّة أخرى.!

-٣-

كانت جدتي متأكّدة من أنها ستعيش زمناً طويلاً... لكنها - في الوقت نفسه - كانت خائفة، خصوصاً من هذا الشتاء، ومن رؤيتها الذئبَ الأزرق.

وفي عتمة الليل، هطلت ثلوجٌ ناعمة، وازداد غضبُ الريح وزئير العاصفة، ومن بعيدٍ، جاءت أصواتٌ لذئابٍ جائعةٍ وهي تتعارك وتركض فوق الثلوج...

صباحاً... استيقظتْ جدتي، على غير عادتها، ثم أخبرتني أنها رأت في منامها الذئب الأزرق، وقد أخبرها أنه لن يأكلها إذا شاهدها مرّة ثانية.

قال لها بالحرف الواحد:

«يا أم أسعد أنت امرأة طيّبة، سوف أسامحك هذه المرة ولن أفترسك!»

- ٤ -

أصبحنا الآن في شهر آذار... والثلوج البيضاءُ الناعمة لا تزل تتساقطُ بين ليلةٍ وأخرى فوق البلدة والجبل القريب.

حوالي التاسعة مساء من ذاك الليل المثلج، جاء ابن عمتي سعيد، وأخبر الجدّة أن أمّه مريضة جداً، فارتبكت جدتي، وارتدتْ ملابسها بسرعةٍ عجيبة، ثم أمسكت بالعصا قائلة لي:

اغلق الباب جيداً، ولا تفتح لأحدٍ.

وغابت مع سعيد فجأة في عتمة الليل...

ويبدو أن جدتي المسكينة، نسيت حكايتها مع الذئب الأزرقِ... فقد وصل سعيد مرعوباً إلى أمّه المريضة، أمّا الجدّة، فإنها لم تصل أبداً إلى ابنتها في تلك الليلة، ولم تعد إليّ... رغم انتظاري الطويل...

* * *

وجوه...

جاء هنيدي...

وكان المساء حزيناً، شاحباً، يرتدي قميصاً من عتمةٍ وخوف.

قرع بابَ غرفتي الطينية الصغيرَ، ثم دخل...

كنتُ جالساً مع أمي، وكانت ساعة الحائط المكسورةُ تُشير إلى العاشرة والنصف. قال هنيدي:

مساءُ الخير... والدك مريضٌ، أرسلني لأخبرك .

كنت أعرف هنيدي منذ أكثر من أربع سنوات، فهو جارُ أبي الساكن شرق البلد، قرب بحيرة تسكنها أسماكٌ ملونة وتقيم حولها عصافيرٌ كثيرةٌ.

كان والدي قد انفصل عن أمي منذ عشر سنوات أو أكثر بقليل، ثم تزّوج مرةً أخرى، وأنجب أطفالاً، وبنى بيتاً بسيطاً متواضعاً، من الطين والقشّ والحجارة.

حين أدركتُ معنى ذاك الانفصال القاسي، وعرفت حجم مأساة أمي، نبت في قلبي حزنٌ وألم، ويأسٌ أسود كئيب.

كانت أمي تعمل في بيوت الناس لتأمين لقمة الخبز ولقمة الحبّ والكرامة لي ولأخي الصغير، كلّ البلد تعرفها، وتعرف وتقدّر معاناتها وسهرها من أجلنا.

وأذكرُ أن أبي أخذنا معه - أنا وأخي- بعد الانفصال بعدة أيام... لكننا هربنا من بيته ذات ليلة مثلجة إلى منزل والدتي البعيد...

استقبلتنا بفرح...

وأخبرتها كيف اخترعت مع أخي الخطّة، وكيف نفذّناها... ولم أنسَ أبداً أن أخبرها أيضاً أن أمّ عارف، تلك العجوز الطيبة، التي كان أبي وقتها مستأجراً عندها، كيف ساعدتنا على تنفيذ خطّتنا.

وقد سمعتُ أمي تردّد وقتها وهي تبكي:

قيمة الإنسان يا بني في مواقفه الإنسانية، فما أجمل ألّا ينسى المرء الخبز والملح، أم عارف بنتُ أصل، لقد سكنّا عندها في بداية زواجنا أنا ووالدك وعندما مات جدّك، كانت الوصية تقولُ: إن المنزل الذي يسكنه سيهبه لي بعد رحيله، وهكذا انتقلنا إلى منزل جدك هذا، لكن أم عارف لم تغب عنا أبداً، ظلّت تزورنا وتحمل إلينا الخبز العربيّ كلّما خبزت ولسخرية القدر...

عاد أبي بعد أن انفصل عن والدتي وتزوج مرة ثانية، عاد ليسكن عند أمّ عارفٍ.

-٢-

كنتُ أكثرَ صمتاً من أخي، الذي تعلّم في وقت قصير التدخين، اكتشفت ذلك ذات يوم فقال لي:

لا تقل لأمي، سأحضرُ لك من مصروفي في رأس السنة كتاباً جميلاً.

كان يعرف تماماً تعلّقي الشديد بالكتب والمجلات، وبالفعل، لم أخبر أمي عن ذاك الاكتشاف، ظلّ سرّاً، ما زلت محتفظاً به حتى اليوم، برغم أن أخي لم يحضر لي الكتاب الجميل الذي وعدني به.

-٣-

قال هنيدي:

والدك مريض ويريد رؤيتك.

- اجلسْ يا هنيدي... اجلس ريثما أرتدي ثيابي.

كان هنيدي شاباً لطيفاً، قلبه ملئٌ بالحبِّ والخير والرحمة، كان يحب جميع الناس، ويساعدهم، ويلقي التحية على كل من

يراه... حتى أولئك الذين كانوا على خلاف مع والده، كان يذهب إليهم في كلّ عيد، ويساعدهم في مواسم الحصاد وقطف العنب والتين، وكنت أسمعه كلما التقيته يردّد:

«تذكّر يا أخي دائماً... إن مساعدة الآخرين تخفّف كثيراً من آلامهم وتعبهم... وتُذهب حزنهم، يجب أن يكون الناس أخوةً وأصدقاءَ»

لكن الناسَ في حقيقة الأمر، كانوا يعتبرون هنيدي شاباً «مصطولاً»، وعلى نيّاته، ويمكن لأي طفل في البلدة أن يضحك عليه ويلعب بعقلاته.

وكان لهنيدي أمٌّ عجوز، وأبٌ ماردٌ ضخمٌ، واسع العينين، كبير الرأس، وكانت العجوز ذات أنف أطول بقليل من أنف هنيدي، تلاقيني دائماً كلما زرت والدي، بحفاوة وغبطة، تجلسُ معنا قرب البحيرة وتسألني عن حالتي، وعن دراستي، وعن صحة أميّ.

بصراحة... لقد كانوا فقراء جداً وطيّبين.

- ٤ -

قال هنيدي وهو ينهض:

لقد تأخّرنا يا أخي... اسرع يا سندي، السماء ستمطر!

- من قال ذلك يا هنيدي؟ أنسيت أننا في تموز!؟

ضحكت أمي، فقال هنيدي:

ومن قال لك يا سندي إن السماء لا تمطر إلّا في الشتاء؟

بشرفي يا جماعة - قال ذلك وهو يضع يده على شاربه الصغير- بشرفي، قبل أربع سنوات جاءت ثلجةٌ كبيرةٌ، وكنتُ وقتها أحصد القمح مع جارنا جدعان، جدعان، هل تعرفه؟ اليوم هو في السعودية، الله ييسّر أمره، وعدني بأن يأخذني إلى هناك، قال إنه سيرسل ورائي بعد أن أستلم الهوية.

سألتُ وأنا أرتدي قميصي:

وهل معك هوية الآن؟

- لا.

سألته أمي مستغربة:

كيف تمشي يا هنيدي دون هوية؟!

- أمشي على قدمي يا خاله، الهوية أضعتها منذ سنة حين كنت مع أمي في البرية نجمع الحطب والأعشاب، قالت الشرطة عندما

ذهبت إلى المخفر وأخبرتهم الموضوع، إن الشغلة بسيطة، مئة ليرة وتعود هويتي إلى جيبتي، باستطاعة الحكومة يا خالة أن تصنع لك هوية جديدة بعد دفع الغرامة، ولكن نحن فقراء، مئة ليرة تكفينا خبزاً لمدّة أسبوع... اسرع يا أخي... الآن أمي ينشغل بالها علي... اسرع...

-٥-

هنيدي...

الشاب الطيب، البسيط، هو الإنسان الوحيد الذي أحببتُه بصدق، كنتُ أتعلّم منه أشياء كثيرة، رائعة ومدهشة، ربما هو نفسه لا يعرفها، تعلّمتها منه من خلال أحاديثه الساذجة، البريئة.

قلت له ذات يوم:

هنيدي... قل لي، ما هو الدافع الذي يجعلك تساعد كل الناس؟!

كنّا نجلس حينذاك قرب البحيرة القريبة من منزل والدي.

أجاب هنيدي :

أنا بصراحة أحبّ كلّ الناس... هم أخوتي وأصدقائي، حين نحبّ بعضنا بعضاً تهون علينا مصائبنا.

كتبتُ ذلك في دفتر مذكّراتي... وكنت أعودُ دائماً إلى الصفحة نفسها وأقرأ بكثير من التأثّر والحبّ الكلمات نفسها التي كان هنيدي يقولها ويؤمن بها...

ما أروع الجنون إذا تحوّل كل إنسان منّا إلى هنيدي!

-٦-

تركنا أمي وخرجنا...

كانت سماء البلدة مظلمةً، مليئة بغيوم كئيبةٍ، قلت وأنا أفرك يديّ ببعضهما:

برد يا هنيدي... برد...

- الله حين يغضب على عباده يجعل صيفهم شتاءً، نحن لا نستحق يا أخي أن نعيش فوق هذه الأرض الطيبة، لأننا لا نحب بعضنا كما يجب، اسرع يا أخي اسرع... لقد تأخرنا كثيراً...

ركض هنيدي فجأة، فركضت خلفه محاولاً الإمساك بثيابه الرّثة القديمة:

طوّل بالك يا هنيدي... طوّل بالك... أنا لا أستطيع الركضَ مثلك، هنيدي... هنيدي... متى مرض والدي؟

منذ خمسة أيام

- ولماذا لم تأت وتخبرني؟

- لأن والدك لم يقل لي، كانت حالته جيدة، وحين ساءت أرسلني لأخبرك

- وخالتي والأولاد؟

- ذهبوا جميعاً إلى الجبل، والدك لا يحب قطع إجازة أحد، قالت خالتك - ويقصد امرأة أبي - إن أولادها اشتاقوا لرؤية جدّهم وجدتهم... اسرع يا سندي... اسرع...

ركض هنيدي مرة أخرى... فركضت خلفه...

- طيّب كيف تركوا أبي بهذه الحالة؟

- لقد مرض والدك فجأة بعد ذهابهم بيومين.

ولسبب ما، تذكّرت رسومات هنيدي، فسألته وأنا أهرول إلى جانبه:

هنيدي... صحيح... ما هي آخر أخبارك الفنية، أما زلت ترسم؟

- دعنا الآن من هذا الموضوع، والدك مريض يا رجل وهو بانتظارك... وربما...

وقطع هنيدي حديثه وكأنّه تذكّر شيئاً ما... لكنني سمعته يردّد وهو يركض:

أسرع يا سندي... أسرع.

-٧-

كان هنيدي يحبّ الرسم كثيراً... وكنت أشاهدُ رسوماته باستمرار...

كان يجلس دائماً قرب البحيرة وعلى ركبتيه دفترُ رسم قديم، كنت قد جلبته له منذ معرفتي به، مع قلم رصاص، وقد سمح لي هنيدي ذات مساء بدخول غرفته الترابية الصغيرة.

- هذه غرفتي يا سندي... تفرّج جيداً على لوحاتي ولا تمسك بيدك شيئاً.

كانت جدران الغرفة مرسوماً عليها وجوهٌ غريبةٌ لطيور سوداء كبيرة، مرعبة، ووجوه لأشخاص قال هنيدي أنهم ماتوا منذ زمن بعيد، وكنت أعرف بعضهم... صورة جدّتي أم أسعد، وعمي إسماعيل، وجارتنا غزالة وابنها أيمن، ووجه لرجلٍ طيّبٍ سكنتُ عنده عدة سنوات أثناء دراستي.

- هنيدي... هذا أبو مزيد الضرير... أليس كذلك؟

- بالضبط، إنه رجلٌ رائع، قلبه مليءٌ بالحب والنور.

بالفعل... كان أبو مزيد رجلاً رائعاً، سكنت عنده حوالي ثماني سنوات، كان ضريراً، ومع ذلك كان يذهب إلى الفرن، وإلى السوق، وإلى كرم العنب والتين، وإلى منزل أخيه سالم، وحيداً تماماً، كان هذا الرجلُ يرى الدنيا ويحسُّها أكثر منا بكثير، نحن الذين نرى أشياءً عديدة، لكننا نادراً ما نحسّها.

ومن خلال بعضِ الأسئلة، اكتشفتُ أمراً فظيعاً للغاية... فقد كان هنيدي يتنبّأ بالموت، فيرسم تلك الوجوه التي سترحل عن هذا العالم خلال فترة زمنية لا تزيد عن أسابيع قليلة!!

وفي زاوية صغيرة، ربما تُركت عمداً خاليةً من الوجوه، سألتُ مستغرباً:

هنيدي... وهنا، مَنْ سترسم؟

ثم أشرتُ بإصبعي إلى الفسحة الفارغة

أجاب حزيناً:

هذا سّر يا أخي... سّر لن أقوله لأحد.

-٨-

الطريق يزداد عتمة، وخوفاً. وفي الفضاء كانت سحبٌ سوداء قاتمةٌ تنذرُ بالشؤم والغضب، وفي مكانٍ ما، قرب الطريق الترابيّ، قفز فجأة طائرٌ أسودُ كبيرٌ، التمعت عيناه للحظة ببريق حاد شرس، ثم رفرف في العتمة...

صاح هنيدي منفعلاً:

هل رأيتها... إنها البومة... في كل يوم تأتي الملعونة إلى هنا، كأنها تريد أن تبني عشّاً لفراخها!

- هل نسيت يا هنيدي، أن مقبرة البلدة قريبة من بيتكم؟

ضرب هنيدي جبهته بيده:

آه... صحيح... كم أنا أبله! الآن تذكّرت.

ثم تابع بعد قليل كأنه نادمٌ على عدم معرفته:

هل تعتقد أنها تأتي من أجل هذه المقبرة؟ ولكن، ماذا تأكل اللعينة؟! هل تلتهم جثث الأموات؟

- يُقال يا هنيدي، إن البومة تأكل عيون الموتى.

- يا لطيف... الله يجيرنا... ويحسن آخرتنا يا رب.

اجتزنا الضوء الشاحب الذي يغطي الطريق الترابي، ثم دخلنا في المفرق الضّيق الذي يوصلُ إلى منزل والدي، وأمامنا هناك، خلف البيوت الطينية المبعثرة، ظهرت المقبرة كأرملةٍ عجوز، ترفض الموت بسهولة، أو دون مقابل.

كان منزلُ والدي رطباً، ضيقاً، مكوّناً من غرفتين صغيرتين ومرحاضٍ خارجيّ يبعد حوالي عشرين متراً باتجاه المقبرة.

- انتبه يا أخي... انتبه... إيّاك أن تقع، امسك بي جيداً، أنا أعرف هذا الطريق أكثر منك.

أمسكت بثياب هنيدي، ثم سمعتُ صوتاً آتياً من قلب العتمة:

هنيدي... يا هنيدي... هنيدي...

- نعم «ياما».

- هل جاء ابن جارنا معك؟

- نعم... إنه معي.

سألت العجوز مرةً أخرى كأنّها لا تصدّق:

أين هو؟

قال هنيدي وهو يهزّ يدي:

تكلّم يا أخي... تكلّم...

- مساء الخير يا عمتي...

ردّت العجوز وهي تقترب نحونا:

أهلاً يا تقبرني...

ثم أضافت لائمة:

هنيدي... لماذا تأخّرت يا سندي... شغلتَ بالي!!

صمت هنيدي... في حين سألتها:

هل أبي بخير؟

أجابتني بشيء من الحزن والعتب:

إنه في البيت... ينتظرك.

دخلنا غرفة والدي، كان في حالة سيئة، تلمّس وجهي برفق دون أن يفتح عينه:

لماذا تأخّرت؟

- هل أحضر لك الطبيب؟

- لا... لكن أريدك أن تبقى هنا... بجانبي حتى الصباح.

طوال الليل وأبي يئنّ ويتألّم... وكان القطُّ الأسود الكبير عنتر يموء بحزنٍ وضراعة، وقد بكى هنيدي، وسمعنا رفرفة البومة الكبيرة حول المنزل، كانت تصرخ وتصيح بأعلى صوتها، ثم تطيرُ لتعود بعد قليل...

قال هنيدي:

إنها البومةُ، ملعونة الوالدين... ماذا جاءت تفعل هنا؟ هل نحن فراخها لكي تلحقنا؟!

سألَ هنيدي مستغرباً، لكن لم يجب على سؤاله أحدٌ، وعرفتُ أن شيئاً فظيعاً وحزيناً قد يحدث الليلة.

بقي هنيدي عندنا حتى الفجر، وعندما استيقظتُ لم أجده، سألت والدي:

- أين هنيدي؟

- جاءت أمّه وأخذته.

نهضتُ من فراشي، غسلت وجهي، ثم ذهبتُ إلى دار هنيدي، قلت لوالدي قبل خروجي:

سأعود... خمس دقائق وأعود إليك.

عدتُ مسرعاً، سألني أبي عن هنيدي، فقلت لا يوجد أحدٌ في الدار.

- ربما ذهبوا يا بني إلى الحصاد.

انتظرتُ طوال النهار. حاولت أن أكتشف ذلك السّر الذي شعرت به داخل عيّني والدي، الذي بدأ يتحسّن، قال:

أعرف أنك قلق على هنيدي... بصراحة هنيدي أخذوه إلى المشفى، لا نعرف ماذا أصابه... الله لا يضرّه...

هنيدي درويش وابن حلال... لا تقلق... إن شاء الله يعود بالسلامة.

سهرتُ تلك الليلة مع أبي حتى ساعة متأخّرة... ولاحظتُ أن البومة لم تأتِ لتقف فوق الأشجار وتصحْ... ففرحتُ... وعاد إلى قلبي شيءٌ من النور والأمل.

-٩-

قبل الفجر بقليل...

سمعتُ انتحاب رجل ما بقربي، نهضت مذعوراً...

كان أبي يبكي، ثم عرفتُ أن هنيدي مات في المشفى بسبب جلطةٍ قوية أصابت دماغه!

فيما بعد... رأيتُ صورة أبي مرسومة داخل غرفة هنيدي... إضافة إلى وجوهٍ أخرى كنتُ أعرف بعضها، من بينها وجه هنيدي نفسُه.

أمّا في الجهة المقابلة لصورة أبي، وفي تلك الفسحة التي سألتُ هنيدي عنها ذات مساء، استطعتُ أن أكتشف ملامح صورة لوجهٍ لم يكتمل بعد، وجه كنت أعرفه تماماً، وأراه كلّما نظرتُ إلى المرآة!

* * *

رجولة

انكسر شيءٌ ما داخل الحانة المضاءة بأضواءٍ خافتة، صفراء، ثم تبع الانكسار انقلاب الطاولات وتحطّم الكراسي...

ها هو يخرج...

رجلٌ في الثالثة والخمسين من اليأس والضّجر، وقف لدقيقةٍ عند باب الحانة، حدّق في الفضاء الأسود، ثم بصق على الأرض وشرع يسير مترنّحاً بجسده الطويل كقصبةٍ فارغة.

كاد أن يقع... لكنه تمالك نفسه وبصقَ مرةً أخرى فوق الأرض الطينية اللّزجة كجسد حلزون عملاق.

عاد ليرفع رأسه، ومرة جديدة بصق... ثم راح يشتم كلّ من تذكّره خلال تلك اللحظات من أولئك الذين سجنوه، وعذّبوه، وأحرقوا أصابعه وأعضاءه بالجمر وأعقاب السجائر... ولم يسلمْ من لسانه الممطوط أقرباؤه وبعض رفاق الطريق...

ثم وقف كأنّه سينقضُّ على فريسةٍ ما، وبصق بصقةً كبيرة:

تفو... الكلاب... الأوغاد... سوف أشنقهم وأطعم رؤوسهم للقطط والجرذان...

وفجأةً... استدار نحو الصوت...

كان الليل يلفّ الأشجار والطريق الترابيّ اللّزج، ها هي الأصوات الغاضبة ترتفعُ من كلّ مكان... كأنّها سمعتْ شتائم الرجلِ وشعرت بحقده على هذا العالم.

إنها تقتربُ... غاضبةً عنيفةً، لا شكّ أنها جائعة، أو منزعجة، أو تطاردُ كائناً ما، ضائعاً وشريداً.

ارتعبَ الرجلُ وتوقّف عن شتم الناس، تمنّى في تلك الدقيقة لو أنه بقي صامتاً، تلفّت حوله مرتبكاً، وبسرعة حاول صعود شجرة كبيرة، وارتفع قبل أن تصل إلى لحمه أنياب حادة وتمزّقه.

كانت كثيرة، وكبيرة إلى حدّ مرعبٍ ومقزّز، ولدقائق ظلَّ الرجلُ يتأمّلها وهي تفتحُ أفواهها المليئة بالأسنان والأنياب الفاتكة وتنبحُ بلؤمٍ وغضب.

مدّ الرجل لسانه وهو يبتسم ابتسامة صفراء شامتة، ثم حاول أن يقفَ على الأغصان العالية، أنزل سرواله وشرع يتبوّل على تلك الأفواه النابحة، كأنّه ينتقم...

* * *

كنتُ أحسدها على ذلك الجمال الغريب، كأنّها جاءت من عالمٍ آخر، عالمٍ أزرق، بعيدٍ كالنجوم، أحببت مفاتنها وشعرها الطويل، ولون عينيها، وفي الوقت نفسه كرهتُ كلَّ ذلك الجمال، ومقتّ كلَّ ذاك السحرِ، لأنه موجودٌ في غيري.

يوماً بعد يوم، أخذت الهوّة تزداد عمقاً بيني وبينها... بدأتُ أحسّ أنها تتحدّاني بجمالها، وتسعى لسرقة أعزّ ما أملك في هذا الكون: زوجي.

ورغم أنني على يقين تام وأكيد بأن زوجي لم يلمحها خلال إقامتنا هنا إلّا مراتٍ معدودة، وأنه بعيد جداً عن فخ سحرها، وشباك عينيها... كل ذلك لم يجعلني أطمئن عليه، منذ الوقت الذي جئنا لنسكن فيه هنا، ومنذ تلك اللحظة التي رأيتها فيها على شرفة شقّتها، وهي تشربُ القهوة، لعبَ الفأرُ في عبّي، ورحتُ أسعى بكل جهدي وحيلي للانتقال إلى مكانٍ آخر، متذرّعة بحجج بدت بسيطة بالنسبة لزوجي الطيب:

انقطاع الماء أحياناً... ضجيج السيارات وأصوات الباعة وطلاب المدرسة المجاورة.

إلّا أن زوجي الطيب لاحظ إصراري وتمسّكي بحججي فوضع المنزل في أحد المكاتب العقارية لبيعه...

وهكذا عشتُ على أمل بيع المنزل والهروب بزوجي بعيداً عن تلك المرأة الساحرة.

-٢-

تزوّجت منذ أعوام، زوجي يعمل في إحدى مؤسسات الحكومة، وهو على عكس الكثير من الموظفين، لا يشكو أبداً من قلّة راتبه، أو معاملة مديره، أو من ازدحام الناس على سيارات الأجرة وأبواب السرافيس، دائماً مزاجه رائق، وصافٍ حتى لو اختلفنا على كثيرٍ من التفاصيل اليومية في حياتنا، يبقى هادئاً، ممسكاً أعصابه بيدٍ قويةٍ، إنه زوجٌ مثاليٌّ، ولا يستحقُ أن أتّهمه بأيّ شيء، لكن ظنوني وشكوكي وغيرتي المفرطة تكاد تقتلني

هو أنيق إلى أبعد حدود الأناقة، لا يخرج إلى عمله إلّا بعد أن يستحم، ويحلق ذقنه، ويصفّف شعر رأسه، ولا يرتدي إلّا الملابس النظيفة، المكوية بعناية.

تعجبني طريقته في عقد ربطة عنقه الحمراء المخملية، وحين يرتدي كامل ملابسه، وأسمع صوته وهو يودّعني أحسّ أنّه صوت رجلٍ آخر، حُسنُ الهندام يجعله جميلاً حتى من الداخل.

منذ أسبوع، استلم عملاً إضافياً، في شركة لتصدير الحلاوة، وطعم الحلاوة التي شرع يزوّد بها برادنا غريبةٌ عن طعم الحلاوة العادية، وألذّ منها، وحين سألته أوضح لي أن الشيء المتقن، العالي الجودة، يجب أن يذهب إلى بطون الآخرين، إلى أفواه الذين يدفعون العملة الصعبة، إلى أولئك القابعين خلف الجبال ووراء البحار البعيدة... ليقولوا عنّا كلاماً جميلاً، ليمدحوا طعامنا في صحفهم وشاشاتهم الصغيرة.

أحياناً كثيرة كان يتأخّر في تلك الشركة، ولأنه يخاف عليّ وعلى مشاعري كان يتّصل ليقول لي بلغةٍ عذبة وأنيقة كهندامه:

حبيبتي... اليوم سوف أتأخّر، وربما أنام في الشركة... لدينا ضغط عملٍ.

وبطبيعة الحال كنتُ أنتظره حتى ولو تأكّدتُ من أنّه لن يعود ليلتها.

كنتُ أحضّر ركوة قهوة كبيرة، وأخرجُ إلى الشرفة لأنتظره هناك...

لقد أحببته أكثر ممّا يتصوره عقل إنسان، وأبعد ممّا يجولُ في خيال البشر، وفي لحظات انتظاري الطويل، كنت ألمحُ جارتنا الساحرة تخرج بين لحظة وأخرى وكأنّها تريد أن تتأكّد من شيء ما، وأحياناً تجلس لتأكل، أو تشرب... وأحياناً أخرى تختفي فلا أكاد أراها أبداً.

وذات مرة، خطر في ذهني أن أمرّ على المكتب العقاري الذي وصفه لي زوجي وأعطاني اسمه... وحين سألت صاحب المكتب عن مصير بيتنا، وهل هناك زبائن تطلبه، حدّق الرجل في وجهي وابتسم:

زوجك يا مدام لم يضعْ أي منزلٍ للبيع عندنا.

صُعقتُ.

وفي الليلة ذاتها اتصل زوجي، وأخبرني أنه لن يعود تلك الليلة، ورغم أنني تذكّرت تماماً قضية بيتنا، والمكتب العقاري، لكنني لم أسأله، أو على الأقل لم أستفسره عن الموضوع، فغداً سوف يعود، ولن أنسى حين أفتح له الباب أن أسأله...

-٣-

كانت تلك الليلة مثلجةً، فلم أخرج لأشرب القهوة، وضعتُ الركوة أمامي وجلستُ قرب المدفأة، ورحت أبرّرُ لزوجي فعلته، وأضع له حلولاً، فالذين نحبّهم نجدُ لهم الأعذارَ دائماً، لا شكّ أنني ذهبتُ إلى مكتبٍ آخر... أجل، أنا شبهُ متأكّدة.

ولأول مرة أغفو، لقد مضى على زواجنا أكثر من أربع سنوات، لا أذكرُ أبداً أنني نمتُ حين يكون زوجي غائباً هناك، منهمكاً في عمله الإضافيّ، أو غير الإضافيّ... كنت دائماً في انتظاره، حتى ولو كنت متأكّدة من أنه لن يأتي.

وحلمتُ تلك الليلة أحلاماً جميلة... فها أنا هناك، مع زوجي، وسط البحر، يتقاذفنا الموجُ ويلعب بنا دون أن يغرقنا، ومن حولنا يسبحُ سمك القرش دون أن يكون في نيّته افتراسنا... أو نهش أقدامنا...

وفجأةً...

انهار شيءٌ فظيع في الخارج، فتحت عيني ونهضت... ومن النافذة رأيتُ الدخان يتصاعد ملتحماً بنداف الثلج... ثم انطلقت ألسنةُ النار من البناء المقابل الذي سقط تماماً.

أصابني الذّهولُ...

ليت تلك المرأة الساحرةَ منحتني جمالها قبل أن ينهار البناء ويسحقها!

ودفعني الفضول إلى الخارج...

وخلال ربع ساعة كانت جميع عناصر الحكومة تتجمّع هنا، سيارات الإسعاف، شرطة النجدة، وسيارات الإطفاء والدفاع المدني...

وفي لحظة غبطة قرّرت ألّا نبيع منزلنا بعد الآن... لقد زال الخطر ومات، ومهما يكن لن أسأل زوجي حين أفتح له الباب غداً عن أي شيء... ولن تكويني نيران الغيرة بعد ذلك مطلقاً.

بقيت واقفة هناك حتى الصباح مع جمعٍ غفير من الناس... مُلتحفة بطانية سميكة، أحملق بذهولٍ ودهشةٍ فيما حدث!!

وعند الساعة الثامنة إلّا ربعاً عاد زوجي...

ولكن ليس من تلك الشركة المصّدرة للحلاوة، بل من تحت أنقاض البناء المحترق، ميتاً !!

* * *

طفولة

عمرها خمس سنوات...

وهي مُصّرة أكثر من الإصرار نفسه، على معرفة ما حدث.

دائماً أجدها بانتظاري... جالسة قرب الباب، وفوق شفتيها الصغيرتين السؤال العنيد ذاته... لكنني كنتُ دائماً أجدُ فرصةَ للهرب من سؤالها الشائك، ومن أسئلتها الأخرى التي سببّتْ لي صداعاً في الرأس، والتهاباً مُزمناً في الروح، وألماً فظيعاً في نفسي...

وحين لا تكُفُّ عن ملاحقتي بالأسئلة، أمسكها وأحملها ثم أجلسها فوق ركبتي:

اسمعي يا بابا... عندما تكبرين أُخبرك كلَّ شيء...

- ولماذا عندما أكبرُ...؟؟ ها أنا كبيرة...

تصعدُ قافزة فوق الكرسيّ الخشبيّ، أو على الكنبى، وتظل تدعوني لأقترب منها، ومن ثم لتقارن بيني وبينها في الطول.

ومن فوق رأسي، أسمع صوتها العذب:

ها أنا أصبحتُ كبيرةً... انظر.

لا شيء أصعب من مواجهة الأطفال والرّدّ على أسئلتهم التي تخفي تحت نبراتها البريئة ما لا علاقة له بالبراءة أبداً، الصغار أذكى ممّا نتصوّر، وأقوى مما نتوّقع، ضعفاء في أجسادهم، لكنّهم أقوى منّا وأجرأ في طرح وقول كل ما لا نستطيع البوح به، أو السؤال عنه.

إنها مصّرة، وأنا أرتبك أمامَ ذاك الإصرار العجيب، وأشعرُ بالخجل أحياناً من عدم قدرتي على مواجهة سؤال يبدو للجميع بمنتهى البساطة!

قلت لنفسي:

الحقائق الكبيرة يجب أن نُفهمها للصّغار على مراحل.

فالحقيقة الكبيرة تصدمهم إذا لم نمهّد لها.

-٢-

ذات يوم عدتُ من العمل فلم أجدها كالعادة أمام الباب تنتظر... حتى أمي لم تكن موجودةً، جُنَّ جنوني... وامتلأتْ شراييني بالتّوتر والقلق... رحتُ أبحث عنها، بحثتُ في المنزل

غرفةً غرفة... خزانة خزانة... زاوية زاوية... وعندما خرجت إلى الشرفة رأيت أمي العجوز في الحديقة، تنظر إلى أعلى الشجرة وتتوسّلُ...

ركضتُ بسرعة...

- ماذا تفعلين فوق يا قردة!؟ هيّا انزلي... انزلي بسرعة...

قالت أمي وهي تهدّئُ من غضبي:

لا تصرخ عليها... ربما تقع.

- انزلي يا بابا... انزلي.

وجاءني صوتها متحدّياً :

لن أنزل حتى تخبرني!!

- يا حبيبتي... لقد أحضرت لك شوكولا وبسكويت... انزلي يا بابا... يا شاطرة...

ردّت عاتبة، كأنها اكتشفت الخدعة:

لا أريد شوكولا ولا بسكويت... ولا أيّ شيء، أريد أن تخبرني.

- حسناً... حسناً... ابقي مكانك، لا تتحركي... سوف أصعد لعندك وأخبرك.

رحتُ أصعد ماسكاً قلبي بيد، وباليد الأخرى تجمّعت روحي بين أصابعي وبدأت ترتجف... ويبدو أن الصغيرة هدأت، فجلست تنتظر وصولي... وحين أصبحتُ على بعد مترين أو أقلّ من جسدها النّحيل، صاحت بغتة:

ابق مكانك يا بابا، وإلّا رميتُ بنفسي.

حسناً... طيّب طيّب يا حبيبتي... لقد سألني عنك اليوم عمّك جواد، وهو يسلم عليك، وأرسل لك لعبة جميلة.

قالت عاتبة:

هيا يا بابا أخبرني، أنا، ألا يوجد لي أم؟!

- طبعاً طبعاً يا عمري... كان لك أم رائعة وطيبة جداً.

- أين هي إذن؟!

- حسناً، هاتي يدك الحلوة... هاتي يدك وسأخبرك...

وعندما حاولت الاقتراب منها، رمت بنفسها... لكن الأغصان الكثيفة تلقّتها وأمسكت بها، فعدتُ لأنزل مرتبكاً، خائفاً على ما تبقّى لي في حياتي البائسة، اللئيمة...

تمزّقت ثيابي، وجرحتُ وجهي وظهري... مددتُ يدي مرة أخرى:

هاتي يدك يا بابا... هاتي يدك...

لكنها ابتعدت فجأة مرة أخرى وتابعت سقوطها...

لقد متُّ في حياتي مرتين:

مرة حين رحلت زوجتي بعد أن وضعت وليدتها بسنة ونصف، ومرةً عندما سقطت ابنتي عن الشجرة وماتت.

أمّا موتي، فلا أعتقد أنه يعنيني بعد اليوم أبداً.

* * *

بينما رحتُ أغفو... انسلّ من يدي وابتعد...

وحلمتُ أنني أصبحتُ شاباً، فجئت إلى منزل سلمى وخطفتها إلى الغابة...

وهناك لم أغتصبها أو أُؤذِ مشاعرها الرّقيقة كجنحي فراشة، فقط قبّلتها على شفتيها وتمدّدت إلى جانبها، وحين طلع الصباح، وجدتها قربي، تنظر إليّ بحنان الأم، وعطف الأخت، وفرح العاشق، تُشعلُ حطباً وتشوي على ناره عصفوراً مسلوخ الجلد، فغفوتُ مرّةً أخرى، راسماً على وجهي ابتسامة هادئة، مطمئنة، فقد تحقّقت دعوة والدتي، وحصلتُ أخيراً على زوجة صالحة لكلّ شيء... لكن شيئاً ما، صلباً وكبيراً وقع على رأسي فاستيقظتُ، وإذ بالبقرة غير موجودة، فقفزتُ من مكاني مذعوراً... ورحتُ أركض وأدور كقطة فقدت صغارها، فالبقرة هي حياتنا كلّها، وأنا من يرعاها ويهتم بها كل يوم.

أخرجوني من المدرسة لهذا السبب، وقد تعهدّتُ لأبي أن أسهرَ على راحة بقرتنا أمّ السنابل، ولا أتركها، فكيف هربت مني؟!! وكيف سهوت وانسلّ حبلُها من يدي؟!

أحسستُ بالقهر يأكلني ويُفتت أحشائي، ماذا سيقول والدي الآن، وماذا ستفعل أميّ بي؟!

رحتُ أبحث بين الأشجار، وخلف الوديان والهضاب القريبة، وحين تعبتُ، تسلّقتُ صخرة كبيرة وجلست هناك أندب حظّي، وألعنُ تلك الغفوة والتي ربما ستكلّفنا حياتنا وترمينا في بئر من جوع وعوز.

ومن بين دموعي رأيتُ جارنا أبا سلمى، وهو رجلٌ قصيرٌ، يخافُ الله، ولا يخشى قول الحق، ولكن... ماذا جاء يفعل هنا؟!

تساءلتُ وأنا أركض نحوه:

عمي أبا سلمى... دخيلك... هل رأيت البقرة؟!

- بقرة؟ أية بقرة يا ولد؟!

- بقرتنا أم السنابل، لقد أفلت الحبل من يدي وضاعت...

- وأنت؟ أين كنت؟!

وخطرَ في ذهني أن أخبره عن حلمي الجميل، وعن سلمى وطيبتها، واعتنائها بي، لكنني أبعدتُ حلمي عن لساني، وقلت مرتبكاً:

بصراحة... بصراحة يا عمي، لقد غفوت قليلاً.

- ماذا...؟ غفوت؟! يا سلام، وبمن حلمتَ؟!

فاجأني سؤاله، كأنّه كان يعرف كيف يفكّر الناس، وسمعته وهو يجلس بقربي:

وماذا سيقول عنك أهل البلد؟ وأمّك... ووالدك؟

وزاد أبو سلمى من قهري وقلقي، وضخّم في أحشائي الخوف والعقاب، فأخفيت وجهي ورحتُ أنتحبُ... فاقترب مني وسألني إذا كان معي زوّادة أو نقود أو مذياع، فاستوضحته عن السبب، شبك أصابعه خلف رأسه وتمدّد على العشب:

اسمع يا ولد، إذا كان معك تلك الأشياء فسوف نمنحها إلى ملك الجنّ الأحمر، فهو قابع هناك، داخل الكهف المجاور، ويعرف كلّ شيء.

- يعرف كل شيء؟!

- طبعاً طبعاً... فهو ملك الجنّ، والملوك عادةً تعرفُ كلّ شيءّ، حتى عمرك وأية ساعةٍ ولدتك أمُك.

فنسيتُ قهري، وغادرني قلقي وخوفي، فقمتُ وركضتُ عائداً إلى الحقيبة الجلدية السوداء، وأخرجت منها الزّوادة - التي لم أتناول منها أية لقمة بعد - سحبتُ المذياع الأزرق، تلك القطعة الصغيرة التي كانت تزوّدني بالموسيقا وأخبار العالم...

وحين شاهدني أبو سلمى عائداً إليه وبيدي الزوّادة والمذياع نهض وصاح بفرح:

يسعد ربّك... سوف تعود بقرتكم... قل إن شاء الله.

فردّدت بصوت خاشع مرتجف:

إن شاء الله يا عمي... إن شاء الله تعود.

ابتعدَ نحو الكهف... لكنه عاد فجأة:

صحيح يا ولد، تذكّرت، هل معك نقود؟ ملك الجن يحب سماع رنين المال، لعله نائمٌ الآن فنرمي قطع النقود داخل الكهف فيستيقظ.

مددتُ يدي وتناولت النقود من خرقةٍ باليةٍ قديمة، كنت أجمع فيها مصروفي اليومي لأشتري به حذاءً جديداً، ودفتر رسم وألوان، أرسم الطبيعة حول البقرة وهي ترعى العشبَ الغضَّ... لكن ما جمعته خلال سنة، أخذه أبو سلمى في يوم واحد.

قال لي أبو سلمى وهو يأخذ النقود:

لا تلحق بي يا ولد ... وإلّا آذانا ملكُ الجن وأصحابه!

فجلستُ خائفاً، مرتعباً، بينما ابتعد أبو سلمى ودخلَ الكهف الذي يبدو من هنا كنقطة حبر صغيرة.

وبعد نصف ساعة رأيتها...

لا أعرف بالضبط من أين خرجت... لكنني رأيتها تتّجه نحوي فصحتُ... وعادت روحي إلى جسدي القلق المرتجف.

رحتُ أركض لملاقاتها، حضنتُ وجهها العزيز، وقبّلتُ جبهتها العريضة، انشغلتُ بها، ولم ألحظُ حينها إذا كان أبو سلمى قد خرج من الكهف أم لا... لكنني رأيته بعد عودتي في البلد، فغمزني بعينيه الصغيرتين وهمس في أذني:

لا داعي لأن تخبر أحداً، ملك الجن لا يحب أن يعرف أحد بأنّه ساعدك.

قلت لأمي:

لقد أضعت المذياع والزوادة، وأكلتُ بعض العشب مع الحليب.

وهكذا قطعتُ على الجميع الأسئلة المحرجة التي ظننت حينها أنّها كانت تنتظرني...

وبقيت تلك الحادثة سرّاً، حتى بعد رحيل والد سلمى، فقد قطعتُ على نفسي أن أحفظ العهد وأصون الأمانة، وأعرف تماماً أنّ ملك الجن الأحمر يسعده ذلك، ولن يتخلّى عن مساعدتي إذا احتجتها يوماً.

-٢-

وذات صباح...

وكنت قد خطبتُ سلمى...

طلبت مني والدتها أن أساعدها على تنظيف السّقيفة، فهي لم تمسَّ منذ رحيل المرحوم.

وفيما كنتُ أناولها بعض الأغراض، رأيته...

كان قابعاً هناك في زاوية صندوق عتيق، عاتباً، وحزيناً، ينتظر مَن يمدّ يده ليستمع على أمواجه المتعدّدة، الأخبار القادمة من كلّ أنحاء العالم...

* * *

رجل في الظّلام

كان أبو سمعان يحلمُ بأن يكون في يوم ما حارساً لمدينته الواسعة...

وحين اقترح مجلس البلدية تعينَه حارساً، نظراً لأمانته وشجاعته، ترك أبو سمعان عمله في بيع الخضراوات وأسرع ليلتحق بعمله الجديد.

كان أبو سمعان رجلاً غليظ الشاربين، مديد القامة، مدّور الوجه، وصاحب عينين صغيرتين حادتين، وجسم قويّ نشيط، وكانت أرصفة المدينة تعرفه حقَّ المعرفة، كما أنّ الغيوم والعصافير والقطط تعرف صوته، وقد شاهدته مئات المرات يجوبُ المدينة دافعاً عربته الصغيرة المحمّلة بالخضار والفواكه.

خضع أبو سمعان بعد تعيينه لفحوصات طبيةٍ دقيقةٍ مرّة أخرى بأمرٍ خاصّ من رئيس البلدية، وحوالي الساعة السابعة من مساء اليوم التالي خرج أبو سمعان من منزله الطينيّ القديم،

حاملاً معه بندقيةً قديمة، وهو لا يكاد يصدّقُ أن حلمه الكبير بدأ يتحقّق.

كان الليل مظلماً، والأشجار والأبنية تبدو كالأشباح وهي تمدّ رؤوسها نحو السماء.

وعندما ابتعد أبو سمعان عن تلك الأبنية العالية، شعر بوحشة ورعشة باردة تنتابه، لكنه تابع طريقه مترنّماً بأغنية قديمة...

وصمتَ فجأةً عندما سمع من بين الأشجار والظلام الدامس صوتاً يردّد:

هيه... أنت هناك... توقّف.

نظر أبو سمعان بحذر وتيقّظ ناحية الصوت، حدّق في الظلام... لكنّه لم يرَ أحداً.

عاد الصوت سائلاً في هذه المرة:

أنت الحارس الجديد للمدينة؟!

فهزّ أبو سمعان رأسه مُجيباً بجرأةٍ وشجاعة:

أجل، ومن أنت «بلا زُغرة؟!»

ردّ أكثر من صوت:

نحن الأربعون حرامياً.

قال أبو سمعان وهو يرفع البندقية:

وأنا علي بابا.

ضحك الرجال المختبئون خلفَ الأشجار، ثم جاء صوتٌ قويٌ يحمل صدى ضحكاتٍ مجلجلةٍ ارتجف من قوّتها أبو سمعان وكاد يقع على الأرض:

علي بابا مات من زمان، وأمّا الأربعون حرامياً فما زالوا على قيد الحياة.

فاغتاظ أبو سمعان، وزمجر بغضب في وجه الظلام:

هل تسخرون مني أيّها اللصوص؟! إذا كنتم رجالاً فاظهروا وقابلوني؟

عند ذلك سمع ضجيجاً صاخباً، وأحسَّ بغتةً بسكاكين عدة تخترق جسده ورقبته...

حُمل بعد ذلك على وجه السرعة إلى مكان ما، وهناك رأى أبو سمعان بين الحلم واليقظة رجالاً بثيابٍ بيضاء كان قد شاهدهم من قبل يجرون فحوصات طبية عليه منذ أيام...

وها هم الآن يستأصلون كليته دون بنج، ليهبوها لرجلٍ ما في هذه المدينة الواسعة، فانهار أبو سمعان مغمياً عليه، وحلم أثناء ذلك بمدينة أخرى نائية ومهجورةٍ، يكون هو حارسها الليليّ الوحيد.

* * *

ليل المدينة

أبرقتِ السماء وهدر الرعد بقوة وعنف، فاهتزّت الزجاجات الفارغة فوق الطاولات مصدرة صوتاً يشبه الرّنين...

اقترب النادل في تلك اللحظة من رجلٍ لا يزال جالساً وراء طاولة منعزلة في إحدى زوايا الحانة.

يبدو أنه نائمٌ، خدّه منبسط فوق وجه الطاولة البارد، ويداه تحيطان برأسه، وقف النادل بجانبه وقال:

«أخي... ما عندك بيت تروح تنام فيه؟!»

رفع الرجل المخمور رأسه بثقلٍ وهدوء، فتح عينيه بصعوبة:

«لأ... ما عندي».

تثاءب... ثم أحنى رأسه وعاد لينام...

لكن صاحب الحانة اقترب هو أيضاً وأمسك بكتف الرجل وهزّه بعنف:

«شو يعني... ما بدّك تفارقنا بريح طيبة؟!»

لم يردّ الرجلُ المخمور، بل فتح عينيه من جديد، وقف ومشى مستسلماً ليدٍ قوية وصلبة كالحديد، أمسكت شعره بقوةٍ، وما هي إلّا لحظات حتى وجد نفسه في الشارع...

وحين لفح الهواء الباردُ والمطر الممزوج بالثلج وجهه انتعشَ، ويبدو أنه أدرك الآن تماماً أين هو، فاتسعت عيناه، وهرب النعاس فجأة منهما، حدّق في الظلام كأنه لا يصدّق:

يا لطيف... يا رب سترك!!

كان الليل دامساً وحزيناً، وصوت العاصفة يهدر في كل مكان سار الرجل عدة خطوات... لكنّه تعثّر وسقط... نهض محاولاً الاستناد إلى جدارٍ قريب، حدّق مرة أخرى في الظلام ثم بصق فوق أسفلت الشارع:

تفوو... و...

كانت ليلة عاصفةً من ليالي كانون، الرياح تولول وتصيح وتعصف ضاربة بقسوة كلّ شيءٍ يصادفُها أو يعترضُ طريقها محاولاً إيقافها وصدّها...

أبرقت السماءُ وشقّ الرعدُ الطرفَ الغربي من فضاء المدينة، فاستطاع الرجلُ رؤية ما حوله للحظات قليلة، خاطفة، ثم انطفأ كلّ شيء فجأة.

رفع الرجل وجهه ونظر إلى الفضاء:

يا مغيث... يا ربّ استرنا...

-٢-

إنّها تثلج الآن بوضوحٍ...

ها هي السماء تندف بالثلج فيعلقُ ويتراكم فوق ثياب الرجل وحوله...

فجأة... وفي اللحظة التي حاول الرجل متابعة طريقه اصطدم شيءٌ ما، أسود وناعمٌ بوجهه، ثم سقط على الأرض أمامه.

انحنى الرجل المخمور وأمسك به، إنّه طائر صغير، حملتْه العاصفة من مكان مجهول...

- آه يا صديقي... حتى أنت طردوك!!

ثم تابع كلامه وهو يُقرّب الطائر من وجهه:

قل لي. ماذا فعلت؟!

تحرّك الطير محاولاً الرفرفة بجناحيه...

قال الرجل بحنان:

لا تخف يا أخي... لا تخفْ...

أدخلهُ بهدوءٍ إلى جيب معطفه، وقال متابعاً حديثه:

ابقَ هنا... العاصفة قويةٌ وأنت ضعيف...

ولسببٍ ما، هدأ الطيرُ داخل المعطف، فتابع الرجلُ خطواته متعثّراً وسط الظلام وهو يدندن أغنية حزينة...

ومرّ في مخيلته شريط حياته الكئيبة، وصورة زوجته التي رحلت منذ أسابيع، فتوقّف فجأة وكأنه تذكّر شيئاً ما... جمع بين أسنانه بصقة كبيرةً وقذفها في وجه الظلام:

تفوو... و... على هالحياة...

يدٌ قاسية كالحديد أمسكت بشعره، وعصا غليظةٌ انهالت عليه فجأة... وسمع أحدهم يسأل:

على مَنْ تبصق يا لعين؟!

تسمّر الرجل مكانه وقد أذهله ما حدث... التفت إلى الخلف، دقّق جيداً في الوجوه العابسة، ثم استدار:

ومن تكونون لكي أقول لكم على مَن بصقت؟!

العصا نفسها نزلت مرّة أخرى عليه، وركلةٌ قويةٌ أصابته في بطنه:

نحن حرّاس المدينة، ونريدُ الآن وفوراً أن نعرف على من كنت تبصق!؟

استشاط الرجل المخمور غضباً... ورفع يده محاولاً ضرب تلك الوجوه الجامدة، لكنّ الركلات انهالت عليه فسقط على الأرض.

أمسكه أحدهم من شعره، وجرّه عدّة أمتار، فصاح الرجلُ المخمور يائساً:

يا زعران... اتركوني بحالي...

حاول التّملّص والفكاك... لكنه شعرَ في تلك الدقائق بنصال عديدة تخترق جسده...

وفي غمرة ذاك العراك، مدّ يده بصعوبة وأطلق الطائر المذعور، وسمع رفرفة جناحيه وهو يبتعد عنه في الظلام...

ارتجفت السماءُ وأضاءت الدنيا كلُّها من حوله، واستطاع الرجلُ المخمور أن يلمح وجه أحد أولاده من بين تلك الوجوه، لمحه للحظة خاطفة وسريعة كالبرق، فانهار تماماً، وسمع وهو يُحْتَضرُ رفرفة طيور كثيرة بيضاء تقتربُ منه، ووقع خطوات قاسيةٍ، ملطخة بالدم، وهي تعدو وسط الظلام...

* * *

تهريب

- مَن فتحَ باب القفص يا امرأة؟!

أجابت أمي والدّهشة تعلو جبهتها العريضة السّمراء:

صدّق يا رجل لا أعرفُ!

ضغط والدي على أسنانه بعضها على بعض، حتى شعرتُ بأنها ستتحطّم بعد لحظةٍ، ثم تساءل بصوتٍ عالٍ:

وهل تسكن معنا الشياطين ليتآمروا عليّ!؟

بيد أنّ والدتي اقتربت منه تلك الدقيقة، جلست على الكنبة وهي تضع أدوات الشاي على طاولةٍ صغيرةٍ:

كم عصفوراً التقطت اليوم؟

لم يجب والدي، شرد بفكره بعيداً، محاولاً حلّ ذاك اللّغز، والإجابة على تلك الأسئلة التي راحت تحرق دماغه وأعصابه منذ ما يزيد على ثلاثة أشهر.

-٢-

شمسُ أيلول تشوي بهدوء إسفلت الشوارع وسطوح الأبنية، والناس تتلوّى متعبةً كقافلة جمال وصلت أخيراً إلى واحة ماءٍ، ثم اكتشفت فجأةً أن الواحة جفّت منذ عدّة أيامٍ.

في ذلك الوقت من النهار، كان والدي يجلسُ هناك، تحت الأشجار التي زيّنها بقضبانه الخضراء اللاصقة، وكانت العصافيرُ بين آونة وأخرى تقفُ لتستريح عليها، أو لتختبئ من سياط الشمس.

وكنت أعرف تماماً أحاسيس والدي، ونظراته الفرحة، بعد صبر طويل، وتلّهفٍ لا يوصف، فاصطياد عصفورٍ حيّ بالنسبة له هو عرسٌ جديد.

إنّه مولعٌ باصطيادها حيّةً، يزجّها داخل أقفاصه ذات القضبان السوداء، ثم يجلسُ ليتأمّلها حالماً بالمزيد.

والعصفور الأخضر الذي أحضره بالأمس، كان المقصود في هذه المرّة، فبعد عودته من الغابة، وتفقّده العصافير، كاد يجنّ ويفقد عقله، هجم كوحشٍ كاسرٍ، وقف أمام أمي المسكينة، وصاح:

هل تسكن معنا الأشباح... أين طار العصفور؟!.. أين اختفى؟!

وتحاول أمي، المسجونة هي أيضاً منذ زواجها، بصوتها المتشنّج الضعيف، وبإشاراتها البطيئة تهدئته:

طوّل بالك يا رجل... طوّل بالك، هل بحثت عنه جيداً وتأكّدت!؟

- هل أنا أعمى... قولي... ها... أأعمى أنا؟ تفضّلي وتأكّدي بنفسك !

وكنتُ أتأكّد معها، ها هو قفصٌ جديدٌ يُفرغ من ساكنيه، ولسبب ما كانت أعصابي ترتعشُ، ويخفق قلبي فرحاً، وتنطلق روحي لبعض الوقت فوق رأسي... ثم تعودُ.

وبدأ والدي يستعيد شريطاً طويلاً من الأحداث شارحاً بغضبٍ بعض التّفاصيل، وموضّحاً بعض الأرقام:

منذ أكثر من ثلاثة أشهر بدأ الخرابُ يدّب ويخيّم على بيتنا... في المرة الأولى فقدتُ تسعة عصافير، يا جماعة، لا عصفور ولا ثلاثة... تسعة دفعة واحدة!!

وفي المرة الثانية أربعةً... وفي هذه المرة واحداً من أفضل عصافيري، ومن أجمل ما التقطتُ خلالَ حياتي، أريد أن أعرف بالضبط، لماذا يقتلني ذاك اللّص بهدوء؟! لماذا لا يطلق جميع العصافير دفعةً واحدة ويخلّصني!!؟

زمّ شفتيه في هذه المرة، كما لم يزمّهما من قبل، جلس على عتبة الباب، فلاحت لي عندئذ دمعتان كبيرتان تجمّعتا على حافة عينيه الكبيرتين الغاضبتين.

ورغم ذلك، لم أشفق عليه...

ففي اليوم التالي، وبعد ذهابه إلى الغابة، تابعتُ تهريب العصافير بفرحٍ أشدَّ، وأمل أقوى... في حين شرعت روحي تنطلق لتحلّق بعيداً عن رأسي، ودون أن تفكّر هذه المرة بالعودة أبداً.

* * *

ما حدث بعد وفاته، كان أكثر ألماً، وأشدّ فظاعة!

وفاته كانت طبيعية.

مرض مرضاً شديداً، ثم أصابه فجأة نزيف حاد، تسنّى لنا رؤيته لعدة ساعات قبل مغادرته هذا العالم.

وهو على فراش الموت، لم يخطر في ذهن أحد منّا أن نسأله إذا كان يخفي أي شيء عنّا ويريد إعلامنا به، ودلّنا عليه.

وبالمقابل... ظلّ صامتاً، يتأمّل وجوهنا وتدمع عيناه، حزناً على نفسه أم علينا!

كان في صمته ضجيجٌ رهيبٌ، يملأ نفوسنا بالذعر والكآبة، وهو على فراش الموت بقي محتفظاً بتلك النظرات القاسية، وبتلك الابتسامة الجامدة كالصخر، نظراته وتحديقه بنا، ودموعه المالحة المتكوّرة داخل عينيه العسليتين، كلّ ذلك كان يوحي بالشّفقة علينا، وبفظاعة ما ينتظرنا من أيامٍ سود.

وصيّته كانت غريبة، وبسيطة في آنٍ واحدٍ :

أن نلبسه تلك البدلة العسكرية القديمة التي رافقته طوال خدمته على الجبهة.

-٢-

كان والدي حريصاً على قطعة الأرض التي ورثها عن أبيه، وظلّ يحلمُ في حياته المضطربة أن يعود ذات يوم إليها، يزرعها ويشجّرها بالزيتون والتين والتفاح، ويبني فيها بيتاً متواضعاً من القشَّ والطين، ويعتزل هناك برفقة كتب الجاحظ والمعري وأفلاطون وسقراط وديوان المتنبي.

وحين أنهى خدمته وعاد، حقّق ربع حلمه...

حرث الأرضَ وزرعها ببعض الشجيرات وأحاطها بسياج يحميها من قدم طائشة أو حمار هائج .

لجأنا إلى مساعدته على مضض... فكان في بعض الأحيان يشعر بتذمّرنا، فيطلب منّا العودة إلى المنزل قبل أن يفقد أعصابه ويزعجنا...

هذا الوضع لم يعجب أخوتي، ولم يُعجبني، فالأرضُ غاليةٌ، وبيعها سيضمن لنا مستقبلاً هناك في المدينة، حيث النساء الجميلات، والتّسكع في الليل... واللعبُ بكل شيء، وعلى كل شيءٍ...

-٣-

لم يدم انتظارنا طويلاً.

ففي بداية الشهر السابع لوفاة العسكري القديم، والفلاح الذي لم يحقّق سوى ربع حلمه، عرضنا الأرض للبيع.

والدتي كان موقفها واضحاً.

رفضت بلطف في البداية، ثم أصرّت على الرفض بقسوةٍ، تركناها شهراً آخر... وعدنا إليها هذه المرة بأفكارٍ كبيرة...

أوحت لنا أنها اقتنعت، ووافقت على ما كنّا ننوي القيام به.

اتفقنا سرّاً مع أحد تجار المدينة، والذي يملك في ضيعتنا نصف أراضيها تقريباً.

وقبل اليوم الموعود للبيع، بحثنا عن أوراق الأرض، سند التّمليك ، ورخصة البيع... فلم نجدها.

أمي رفضت إعلامنا بمكان وجودها، لكنها، وتحت إصرارنا وتهديدنا بأننا سوف نتركها وحيدةً ونذهب عنها إلى المدينة، اعترفت لنا.

كان حديثها يشبه من يتحدّث عن حلمٍ رآه... وها هو يستيقظ منه في هذه اللحظات...

لم نصدّق!!

هل يُعقل ذلك؟!

أحنت أمي رأسها وبكت...

كأنها لم تكن لتصدّق أنها ستصل حياتها معنا بعد وفاة والدي إلى ما وصلت إليه.

رفعت رأسها وراحت تتأمّلنا، فلمع في أعيننا بياض فوطتها الطويلة وهي تموج كشرشف من الثلج تحت ضوء قنديلنا القديم المعلّق فوق الجدار منذ ولادتنا.

-٤-

إنها الواحدة والنصف من ليل تموز وقد عزمنا أمرنا على متابعة تنفيذ نوايانا...

كانت والدتي نائمةً، أطفأ أحدنا ضوء القنديل، ثم أغلق الباب ولحق بنا...

في باحة الدار ماءت القطة الكبيرة التي كانت ترافق والدي إلى الفرن، وإلى الأرض المزروعة، وإلى زيارة الجيران.

ماءت بصوتٍ لم نعهده من قبل!

خفنا أن تستيقظ أمي، فرماها أخي الصغير بحجر كاد أن يقتلها لو أصابها.

- ملعونة الوالدين... حتى أنت!

تابعنا طريقنا...

المهمة كبيرة، لكنها مُخزية ومحرجة إذا حدث ورآنا أحدٌ ما!

كان للمقبرة عدة طرق مختصرة للوصول إليها، فاخترنا أطولها ليكون الوقت مناسباً ومتأخراً أكثر.

شكّك أحد أخوتي بكلام والدتي، وقال الآخر إنها فعلت ذلك لعلّنا نرتعد ونبعد الفكرة عن رؤوسنا...

لكن عزمنا على تنفيذ مآربنا جعلنا نسرع في خطواتنا أكثر...

كان باب المقبرة شبه مفتوح، وحين دفعناه أصدر صوتاً يشبه أنين رجل يموت، مشينا بين القبور... ثم عرف أحدنا قبر والدي وأشار إليه، فاقتربنا منهُ، لكن فجأة ذُعرنا حين قفزت قطتنا الكبيرة من خلف القبر وماءت بصوت مرعب مريع.

جلس أحد أخوتي فوق حجر وبدأ يبكي... بينما راح أخي الصغير يُطارد القطة اللئيمة بين القبور...

وتناهى إلى أسماعنا صوتها بعد قليل وهي تُخنق وتموء مستنجدة... عاد أخي، رفعها من ذيلها ولوّح بها فوق رأسه ثم رماها بعيداً...

لم يسأله أحد لماذا فعل ذلك، بل اقتربنا من أخي الجالس فوق الحجر وساعدناه على الوقوف...

اقترب الأخ الكبير ليفتح باب القبر فخطونا لنساعده...

مددنا أيدينا ورحنا نعبث محاولين خلع الباب...

وفجأة... اشتعلت الدنيا من حولنا وارتجف الدم في عروقنا والتهب وبدأ يحرقنا ...

دوّى طلقٌ آخر في الفضاء...

التفتنا مرعوبين.

كانت تقف خلفنا، بفوطتها التي اشتدّ بياضها في تلك اللحظات والتمع بعناد في أعيننا...

صوّبت بندقية والدي نحونا، وكانت إرادتها في هذه المرة جبّارة وثائرةً، ومستعدّة أن تقتلنا، واحداً تلو الآخر... إذا نحن مضينا في فعلتنا في نبش القبر واستخراج سند التمليك وأوراق الأرض من بين ثياب والدي!

* * *

مواء رجل

انسكب ضوءٌ أصفر باهتٌ من مصابيح معلّقةٍ على أعمدةٍ طويلةٍ فوق إسفلت الشارع، وكان الثلجُ يتساقط...

إنها ليلةُ عيد الميلاد...

الثلج يتساقط بكثافة، يرقص في الفضاء كفراشات مرحة، تدور وتدور... ثم تتهادى وتسكن فوق سطوح الحوانيت وعلى الأرصفة ونوافذ البيوت...

ومن مصباحٍ في أحد الشوارع، امتدّ ضوء كشريط طويل مُتسلّلاً عبر زجاج نافذة خشبية صغيرة لغرفة وحيدةٍ تقع في الطابق الثالث من أحد البيوت، وفوق السرير، كان هناك رجلٌ استيقظ منذ قليل، ها هو يُبعد الغطاء عنه وينهض، ثم يتقدّم من زجاج النافذة، فيضيء الشريط الممتد من الشارع جزءاً من وجهه.

- إنّها تثلج.

همس وكأنّه يخاف أن يسمعه أحدٌ ما ، ثم استدار ليشعل المصباح، وقعت أصابعه على زرّ رطب، بارد، ضغطه... أضاء مصباح الغرفة لثوانٍ ثم انطفأ فجأةً واحترق.

تذمّر الرجل، وراح يبحث عن شمعة يُضيئها... فتح درج خزانة مليئاً بالكتب والمجلات وأوراقٍ مبعثرةٍ، تناول شمعة كان قد احترق بعضها من قبل، أشعلها، ثم تقدّم ليضعها فوق طاولة مربعة قرب النافذة.

ومن الشارع القريب، المتساقط عليه الثلج، سمع الرجل مواءً ممزوجاً بالألم واليأس، مدّ يده ومسح زجاج النافذة، قرّب وجهه حتى لامس أنفه الطويل الزجاج البارد، حدّق بأرض الشارع... لم يكن هناك أي مخلوق، فقط ، كانت الريح تعصف وتعبث بالثلج الناعم، وتحمله وتتقاذفه من مكان لآخر...

تخيّل الرجل صاحب المواء:

قطة صغيرة، مريضة، تركتها رفيقاتها وحيدة تحت الثلج، أو ربما كانت قطة لئيمة وجريئة، تخرّب وتكسّر كل شيء تراه، وتتدخّل فيما لا يعنيها، فطردها صاحب المنزل في هذه الليلة كعقاب لها.

ضحك الرجل من تخيّلاته وأوهامه، رفع رأسه ونظر إلى ساعةٍ كبيرة، مدّورة، معلّقة، تدور طاحنة الوقت بأسنانها الناعمة.

- بعد قليل ستصل.

قال بينه وبين نفسه وهو يجلس فوق كرسيّ قريب، تناول علبة السجائر، سحب واحدة ودفعها إلى فمهِ، ثم قرّب رأسه من الشمعة، أخذ نفساً عميقاً من السيجارة، ونفث دخانها...

كان الثلج الأبيض الجميل يتساقط فوق كل شيءٍ... دون أن يميّز بين أسطح البنايات العالية ونوافذها، وبين براميل القمامة، وأرصفة الشوارع الوسخة...

راح الرجلُ ينتظر...

وتذكّرها...

إنها ناعمة كالثلج، امرأة رشيقة، وديعةٌ كغزالٍ، تعرّف إليها في إحدى الحفلات التي أقامها بعضُ الأصدقاء، اهتمّت به، لاحظ الرجل ذلك من نظراتها ومداعبتها له بكلمات أنيقة، كأنّها اختارتها لتقولها له بالذّات.

ثم جلسا وحيدين...

أخبرته بعض القصص عن حياتها، اطمأنّ لها، ولسحر عينيها، حدّثها بصراحة عن نفسه، ولم يُخفِ عنها شيئاً...

وبعد أن مضت... عاد إلى نفسه، وربما ندم على بعض الجمل التي قالها، لام قلبه ولسانه على أحاديث كان من المفروض ألّا تُقال أبداً، وعن كلام خطير مُدوّن في دفاتره.

لكنه من جهةٍ أخرى، كان سعيداً، منتشياً وهو يُفضي بهمومه وأحزانه إلى أوّل امرأة يقابلها ويجلس معها بعد خروجه من السجن.

لم يصدّق حين دعاها أنها قبلت دعوته!

قالت إنّها ستأتي لزيارته لساعة فقط، في ليلة عيد الميلاد.

ضحك الرجلُ وقتها... موحياً لها أن هذه الليلة مُخصّصة للأعزّاء والناس ذوي المكانة العالية في قلبها، فأكّدت أنه أصبح واحداً منهم، وأقسمت أنها ستأتي.

نهض، وعلى ضوء الشمعة، راح يحضّر الفواكه والموالح... خاف أن يذهب إلى السوق لشراء مصباح جديد فتأتي في غيابه ولا تجده.

أشعلَ شمعة أخرى وجدها في المطبخ، ثم وضعها إلى جانب أختها على الطاولة.

تذكّر وجه المرأة الفاتن... ابتسم وتساءل:

أيعقل أن تأتي؟!

لكنّها أقسمت، وقالت إنّها سوف تخبره وتتصل به إذا غيّرت رأيها...

-٢-

انتصف الليل ولّما تأتِ أو تتّصل...

أطفأ الشمعتين ، وحزن لأنه أمضى هذه الليلة وحيداً .

- لماذا فعلت ذلك؟!

غداً سوف يعاتبها، وربما يطلب منها ألّا تلعب بعواطفه مرةً أخرى.

حاول النوم...

وقبل ولادة الفجر بقليل، سمع وقع خطوات فوق الدرج...

- أيعقل أنّها هي؟؟

قُرع الباب...

قال في نفسه:

غير معقول... لا شك أنها هي...

فرح وهو ينهض... أشعل الشمعة واقترب ليفتح الباب...

دفعه أحدهم فجأةً ودخل...

تقدّم آخر وقال بصرامة وحزمٍ:

استدر نحو الحائط، وارفع يديك.

أخذ منه الشمعة ورماها بعيداً فانطفأت.

فتّشوا غرفته على أضواءٍ كاشفة أحضروها معهم خصيّصاً لذلك، أخذوا جميع الأوراق والدفاتر والكتب...

حاول الرجل أن يستفسر عمّا فعل، لكن أحدهم طلب منه أن يخرس وإلّا كسّروا أسنانه.

شكر الله على أن المرأة الجميلة لم تأتِ.

ماذا ستقول عنه لو أنّها كانت موجودة؟!

الحمد لله على أنها لم تأتِ.

عادَ ليشكر ربّه مرة ثانية...

وحين كان ينزل الدّرج مُقيّد اليدين، لمحها تبتسم...

كانت هناك تقف معهم، بوجهها الساحر، وعينيها الفاتنتين، وتناهى إلى سمعه في تلك الدقائق الصعبة صراخ رجالٍ كثيرين، تحوّلوا في هذه الليلة المثلجة إلى قطط وفئران تركض هاربة من صقيع قادم مميت، بدأ يكفّن جسدَ المدينة...

* * *

الوحوش

منذ أيامٍ بدأ فصلُ الرياح والثلوج، غادرت العصافير سماء المدينة وأشجارها، وعادت قطعان الغيوم لتركض في الفضاء وتلعب كالأطفال، وعند خاصرة الجبل الكبير شرع البحر يتنهّدُ كطفلٍ ماتَ أهله.

أحضرتُ معي مدفأة من السوق، وبعض الحاجات الضّرورية...

سيكون الشتاء قاسياً هذا العام، المكتوب يُقرأ من عنوانه.

بيد أن نصيحةً قديمةً خطرتْ في رأسي والتمعت كشهاب في سماء مظلمة:

«كن حذراً يا بني... الوحوش تملأ كلّ مكان، وتزداد شراسةً وعنفاً في البرد والصقيع»

كانت تلك وصيّة أمي قبل رحيلها، ورغم اقتناعي شبه التّام بعدم وجود الوحوش، وبأنّها انقرضت مع اختراع الإنسان للأسلحة والقنابل النووية، إنّما قناعاتي بدأت تتغيّر وتتبدّل، وشرعت تتلاشى يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، لتصل إلى ذروتها ذات ليلة مظلمة.

-٢-

كنتُ غريب الأطوار والطّباع، أخرجُ في جميع الفصول لأتسكّع هنا وهناك ليلاً... بيد أن هذا الشتاء بدأ يحفر في نفسي نفقاً من العتمة والحزن.

كانت ليلة عاصفة من ليالي شهر تشرين حين ارتديتُ ملابسي وخرجت لأمارس هوايتي مجرجراً جسدي فوق جسد المدينة...

ها هي الريحُ تهبّ... تلعلعُ وتعصف في وجه كلّ شيء... تصفع الأبواب والنوافذ، ثم تبتعد وهي تئنّ مُتغلغلة في بطن المدينة وأمعائها القديمة، والمطرُ ينهمرُ كأنه ينتقم من كلّ وجهٍ يسقط عليه.

فجأة لمحته يركض وسطَ العتمة... فصرختُ دون شعور:

هيه... أنت هناك... توقّف. توقّف لحظةً.

تناولتُ من جيب سترتي علبة التبغ، سحبتُ سيجارة:

هل معك «ولعة؟».

كان رجلاً متوسّط القامة، خفيف الشعر، نحيف الوجه، يرتدي ثياباً داكنة، وبين يديه يحمل كيساً بداخله شيء ما يئنّ ويتحرّك.

- ما هذا؟

سألته مستغرباً.

نظر إليّ بسخريةٍ وقال:

ماذا تريد بالضبط يا أخي، علبة ثقاب أم الكيس؟!

تذكّرت بسرعة أنني سألته في البداية عن علبة ثقاب، فحاولت أن أبدأ حديثاً ما... لكن مواء قطة أنقذني:

قطة؟!

- أجل سيدي... قطةٌ... عفريتة...

- وإلى أين ستأخذها؟

قال متذمّراً:

إلى جهنّم... ما دخلك أنت بهذا الموضوع؟!

- عفواً يا أستاذ، لم أقصد إزعاجك.

ثم أضفتُ بعد لحظة:

على فكرة، محسوبك مُغرم بالقطط.

- تشرّفنا.

صمت للحظة، كأنه يفكّر بحلٍّ ما خطر في ذهنه، ابتسم، ثم مدّ الكيس بحذر:

بما أنّك تحبُّ القطط، يمكنك أخذ هذه العفريتة، فالطريق إلى الغابة لا يزال بعيداً والعاصفة تشتدّ.

وأضاف وهو يدفع الكيس نحوي:

كنت أنتظر مثل هذه الليلة لأتخلّص منها.

- ما ذنب هذه القطة الصغيرة كي ترميها في الظلام!!

- ما دمت يا أخي مهتمّاً بها، وقلبك عليها، خذها إذن.

لا أعرفُ كيف تركها بين يدي وانطلق دون أن يعطيني عودَ ثقاب...

ابتعد فجأة وما لبثت العتمة أن ابتلعته...

أخرجت القطة من الكيس، كانت خائفة وترتجف، ضممتها، فانتقل ارتعاش جسدها وخفقان قلبها إلى روحي وأنفاسي...

ارتفع أنينها.

لا شك أنها تتوجّع...

ازداد تشبّثها بثيابي، فانطلقتُ عائداً إلى غرفتي تحت سماءٍ غاضبةٍ، مُوحشةٍ.

ومن خلال سيقان المطر الطويلة، العارية، وفي نهاية أحد الشوارع المقفرة، كانت هنالك شرارات تتطاير من عينين جائعتين تنتظران...

ضممتُ القطة المسكينة إلى صدري أكثر، ارتبكت وكدّتُ أنهارُ، وحرتُ ما بين تسليمها وبين تسليم نفسي...

* * *

الحمار

ثمة عجوزٌ تسير مرتبكة في الظلام البارد، جارّة خلفها بغيظٍ حماراً أحمق يسير لعدة لحظات ويتوقّف...

وكانت السماء ذات وجهٍ رماديّ، عاتمٍ، يُنذر بالشؤم والكآبة، وكانت الريح تزمجرُ وتحملق في وجه العجوز والحمار، والأشجار العالية...

تقترب العجوز من حمارها:

ها... خيرٌ إن شاء الله، ما بك؟ ماذا جرى لأقدامك، ها، لماذا لا تسير، هل يعجبك الجو؟!

ويظلُ الحمارُ جامداً في مكانه، ينظر بعينين جاحظتين إلى وجه العجوز المترهّل...

ها هي تشده بقوة... فيسير الحمار بهدوء وتكاسلٍ، مادّاً رأسه الطويل إلى الأمام... تسرع العجوز في حثّ خطاها نحو كوخها الذي بات قريباً...

لكن الحمار ما يلبث أن يتوقّف من جديد، فيشتدُّ غضبُ العجوز ويمتزج مع غضب الريح والطبيعة ووجه السماء الحزين.

ها هي تمطر... والمدينة هادئة، صامتة كمقبرة واسعةٍ، مظلمةٍ كفم حيوانٍ متوحّش.

تقف العجوز حائرةٌ، تفكّر بحلٍ مناسب للخروج من هذه الورطة... يتأمّلها الحمارُ، ويبدو أنه هو أيضاً يفكر بشيء ما، ربما بطريقةٍ ناجحة للفرار... فقد حدث أكثرَ من مرة وهرب من حقل العجوز، لكن ما يلبث وأن يُقبضُ عليه.

ويتناهى إلى سمع العجوز الحائرة جِلبةٌ صاخبةٌ، وضجيجٌ حادٌ، ومن خلال العتمة تستطيع أن تميّز أربعة أشباحٍ تسير مترنّحة وسطَ الظلام... وما أن وصلوا إلى جانبها حتى وقف أحدُهم وقال لزميله مشيراً بيده نحو الحمار:

انظر أين أنت، هذه طفولتك البريئة. هل تعرف أنك كنتَ أجمل من الآن بكثير.

ويتعالى ضحك الرجال، ويبدو أنهم خرجوا للتوّ من حانةٍ قريبةٍ، فانتشرت في المكان رائحةٌ حادة، قوية...

- كلُّنا حمير... آه لو كنتُ حماراً حقاً، لكانت حياتي أجمل وأفضل من هذه الحياة القذرة التي أعيشها...

فاقترب منه رجلٌ آخر، وقال وهو يترنح:

أنت حمارٌ لوحدك، نحن أو ادم؟

ردّ الرجلُ الآخرُ:

وما الفرق بينك وبينه؟

ثم تابع بعد صمتٍ قصير:

الفرق بسيطٌ وواضحٌ، أنت تسير على قدمين أما هو فيسير على أربعٍ.

فيغضبُ الرجلُ الذي وُجهّت إليه هذه الإهانة، ويسحب من جنبه موساً تبرقُ شفرتُها وتلتمع في أعين الرجال، وتتسّمر العجوزُ وتحاول تهدئة الموقف:

عيب يا شباب... طوّلوا بالكم...

ويحدّق إليهم الحمارُ مندهشاً، مستغرباً، وقد بد عليه أنه سيسعلُ أو سينهقُ، فيقترب صاحب المدية ويمسك بزميله قائلاً بغضب:

اسحب كلامك، من هو الحمار؟

- هل صدّقت يا رجل... كنت أمزحُ معك... يعني لو كنا حميراً لكانت حياتنا أفضل من حياة شعوبنا المتقاتلة، على الأقل لا نفكرّ بمآسينا وخراب بيوتنا...

ويحيط الرجال الثلاثة بالمتكلّم، قاطعين ضحكته وكلامه بحركاتهم الغاضبة، ويقول أحدهم بسخط:

أنت تُسيء إلى سمعة البشرية، كيف تجرؤ على قول ذلك... كيف... كيف...؟!

وتتعالى أصوات مؤيّدة:

صحيح... كيف تجرؤ على قول ذلك... كيف... كيف؟!

وتحاول العجوز أن تسير مبتعدةً، وقد شعرت أن الموقف تأزّم وكبرَ، فيتبعها الحمار بسرعة غير عادية، وتسمع وهي تبتعد شجاراً حاداً، يعقبه استغاثة يائسة، وصوت ملتاع، ما يلبث أن يتلاشى في الظلام الموحش...

* * *

ليلة عاصفة

بسبب العاصفة الثلجية التي هبّت فجأةً، لم نستطع متابعة الطريق، انحرفت السيارة بنا نحو أقصى اليمين، ثم اصطدمت بشجرة كبيرة وتوقّفت.

قالت أختي الصغيرة:

لن نستطيع الوصول!

أمّا أمي الجالسة في المقعد الخلفي، والمحتضنة جدتي بحنان لم أعهده من قبل، فقد سمعتها تؤكّد:

بلى... سنصل، لا تقولي لن نصل يا صغيرتي، لا تقولي ذلك.

- أنا لستُ صغيرة!

قالت أمي غاضبة:

كم مرة قلت لكِ، لا تردّي جواباً في وجهي!؟

زجرتها أمي بقسوة، فصمتت أختي، التي اعتادت الثرثرة والمشاكسة... صمتت كأنّها لم تكن بيننا أبداً في تلك اللحظة،

وبقيت صامتةً حتى بعد ذهاب أمي وجدّتي... بينما ظلّت الثلوج تتساقط بكثافة وجنون...

-٢-

سألتُ أمي بقلقٍ:

أما زلنا بعيدين؟

- حوالي خمسة كيلو مترات عن أوّل مستوصفٍ.

فتحت أمي الباب، ثم سحبت الجسد الهزيل الذي كان يئنُّ منذ عدة ساعات، ولا يزال... سحبته بهدوءٍ، ثم حملته على ظهرها وانطلقت شاقّة طريقاً بدأت تظهرُ ملامحه...

- أمي... إلى أين أنت ذاهبةٌ ؟!

فتحتُ باب السيارة وصحتُ خلفها...

أجابت دون أن تلتفت:

- ابق مع أختك، أو عد بها إلى المنزل.

- لكن الثلوج كثيفة يا أمي، انتظري ريثما تهدأ السماء قليلاً.

- وإذا لم تهدأ؟

سمعتها تقول ذلك دون أن تلتفت أيضاً، بل شرعت تشقُّ بقدميها النحيلتين القويتين كخشبتي صنوبر، طريقاً ظهرت ملامحه لعدة دقائق أمام عيني، ثم بدأ يختفي بهدوء تحت الثلج.

أمّا أختي الصغيرة، فلم تقلْ شيئاً أو تصرخ، إنّما رأيتها ترفع يدها الصغيرة من داخل السيارة وتلّوح بشيء من الحزن والعتب.

صعدتُ السيارة وأغلقت الباب:

هيّا... سنعود إلى المنزل، المدينة لم تعد بعيدة، وسوف تصل أمي وجدتي إليها بعد نصف ساعة تماماً.

- عدْ وحدك، أنا سوف أبقى هنا ريثما تعودان.

- يا هبلة... سوف نتجمّد.

أجابت مُصرة على موقفها:

عدْ أنت إذا أردت... قلت لك أنا سوف أبقى، حتى ولو تجمّدت.

وما هي إلّا لحظاتٌ، حتى بدأت أختي تبكي وتنوح:

عدْ وحدك... أنا لن أعود... لن أعود...

-٣-

أخذت العاصفةُ تشتدّ وتقوى... وازدادت الثلوج وظهر فجأةً ضبابٌ كثيفٌ غطىّ كلّ شيءٍ، حتى لم نعد نرى أمامنا إلّا لعدة أمتار فقط، واقتربت عقارب ساعتي من السابعة مساءً، ذلك يعني أن أمي وجدتي المريضة ربما قد وصلتا مستوصف المدينة منذ بعض الوقت، لا شك أنهما وصلتا الآن، فقد مضى على انتظارنا حوالي ثلاث ساعات، تراكمت الثلوج أثناء ذلك وتكدّست في كل مكان وسُدّت الطرق، ولم نعد قادرين - أنا وأختي الصغيرة - على العودة أو التقدم نحو المدينة.

أشعلتُ مُكيّف التّدفئة، كانت أختي قد نامت متكوّرة على نفسها في المقعد الخلفي، وربما حالفة بعودة أمي وجدتي... أمّا أنا فبقيت مستيقظاً حتى الثالثة والنصف من ليلٍ مثلجٍ عاصف...

وحوالي التاسعة صباحاً، أيقظتني جلبةٌ ووقع أقدام فوق الثلج المتجمد، وأصوات تنادي:

هل أنتم بخير... هاي... افتحوا النوافذ... هل أنتم أحياء؟!

استطاعوا بصعوبة الوصول إلينا، كنّا في حالة جيدة، فالنوم أنسانا كلّ ما كان يدور ويجري في الخارج.

- ٤ -

حتى اليوم، ما زالت أختي تنتظر عودة أمي وجدتي المريضة، أمّا أنا، فتكاد غصّة مريرة تخنقني كلّما تذكّرت ذلك... كلّما تذكّرت...

* * *

هناك تحت الجسر

هَدر الرعد بومضات قويةٍ، حادةٍ وشرسةٍ، فاختلجت السماء كعصفور جريح، سقط فجأة بطلقة سريعة، خاطفة، أطلقها صيادٌ ماهرٌ، متمرسٌ... وتغلغلت هناك بين الغيوم السوداء كالفحم خطوطٌ فضيةٌ مستقيمة، ثم تكسّرت منحدرة نحو السهول والجبال البعيدة...

ها هي تمطر...

زمَّ الرجلُ الملتحيُّ معطفه الطويل حول جسده، ودس يديه الباردتين داخل جيوبه، تمتم بشيء ما، بعصبية وحنق، ثم هرول نحو الجسر... لاحظ وهو يقترب أن هنالك شبحاً ما، وحين وصل كانت ثيابه قد تبلّلت تماماً.

- مساء الخير.

التفت الشبحُ الهزيل إلى الرجل، ورد بصوتٍ ضعيفٍ، مترهل، فتبيّن للرجل أن الصوت لامرأة عجوزٍ، نحيلة كعود خيزران يابس.

- ماذا تفعلين هنا يا خالة؟!

ولعدة لحظات سادَ صمتٌ مطبقٌ، ثقيل، قطعه فجأةً قصفُ الرعد وهديره، واختلاجات السماء النازفة...

نظرت العجوز إلى الرجل، وأشارت إليه أن يجلس وكأنها تودّ بذلك طرد هذه الوحشة وتبديد هذا الصمت.

- كنت ذاهبة إلى ابنتي... يعني ابنتي مريضةٌ... ربما ستلد هذه الليلة...

وقطع حديث العجوز صوت الرعد مرة أخرى، وانتشر في السماء المعتمة ضوءٌ أبيضٌ مائلٌ إلى الزرقة ثم انطفأ بسرعة.

- يعني... أنت تعرف يا بني قلبَ الأم، عندما قالوا لي إنّها تتألم لم أصبر حتى الصباح... ولن أرتاح أبداً إلّا بعد وصولي إلى بيتها... ها... لماذا لا تجلس، هل أنت خائفٌ؟!

- ومما أخافُ؟

- من السماء...

جلس الرجل وتمتم وهو ينظر إلى الفضاء:

الله يبعث الخير.

- وأنت، إلى أين كنت ذاهباً - سألت العجوز -

- كنتُ عائداً إلى غرفتي، لكنّ السماء بدأت تمطر، لو لم أهرب إلى هنا الله والعليم ماذا حدث لي.

ضحكت العجوز، وهدرت السماء من جديد، أبرق بطنها واختلج، واشتدّ فجأة تساقط المطر، ثم بدأ يتطاير رذاذٌ خفيفٌ من ماء النهر القريب...

-٢-

وكان النهر فيما مضى ترتفع مياهه وتطغي على ما حوله... وحدث في الشتاء ما قبل الماضي وارتفعت مياهه، فاجتاحت بيوت المدينة القريبة، وهدمت الترابية منها والمتصدّعة... وكان النهرُ يهدأ مع هدوء العاصفة، وتستريحُ مياهه كأنها وصلت أخيراً إلى البحر.

- تراه سيرتفع؟

تساءلت العجوز، وهي تنظر إلى المياه العكرة، الهادرة...

قال الرجلُ وهو يحدّقُ في السماء:

من يدري يا خالةُ... إذا استمرّت السماء تمطر بهذا الشكل الجنوني فمن المؤكّد أن مياهه ستغمر كلّ شيءٍ...

إنّما السماء الغاضبة لم تتوقّف، ظلت تمطرُ بقوةٍ وغضبٍ، فلاحظ الرجل بعد قليل أنّ مياه النهر بدأت ترتفع، وقف وقال حائراً، مرتبكاً:

- أنا ذاهبٌ... أستبقين هنا؟

- نعم، ريثما تهدأ السماءُ.

- وإذا لم تهدأ؟

أجابت العجوز مطمئنةً:

سأبقى حتى ولو اضطررت إلى النوم هنا، تحت الجسر.

انطلق الرجل يعدو متغلغلاً في أعماق الظلمة، وما لبث أن غاب وتلاشى عن أنظار العجوز...

-٣-

ها هو الصباح يولد فرحاً بلقاء الأشجار والعصافير، كأنّ العاصفة في الليلة الماضية لم تكن، كلُّ شيء عادَ إلى ما كان عليه.

وها هو الرجل الملتحي، يقف هناك، وغير بعيد عن الجسر ليسأل بفضول مجموعةً من الرجال عن شيء يحملونه على لوحٍ خشبي:

رجلٌ أو طفل صغير؟!

- لا هذا ولا ذاك، إنها امرأةٌ عجوزٌ، أكل الدّهر عليها وشرب.

وفي مكان ما، داخل أحد البيوت الطينية البعيدة، سُمع، وللمرة الأولى، بكاء طفلٍ صغيرٍ وهو يخرج إلى هذا العالم...

* * *

الطّيور

كان خالي جميل مُغرماً بتربية الطيور...

يدّخر المال ويوّفره طوال السنة، حتى إذا جاء موسم شراء الحمام ذهب إلى السّوق.

ودائماً كان يعود وداخل كيسه الأسود حمامةٌ أو أكثر، يقصُّ أجنحتها ويحبسها على السطح داخل علب من الصّفيح.

وبعد أسبوع أو شهر، كان يُطلقها.

بعضها كان يخاف أن يرتفع فيعود بسرعة إلى عُلب الصفيح، وبعضها كان قوياً، يرفرف بجناحيه بسرعةٍ ويطير.

تدور الحمامات في الفضاء، وتدور معها عينا خالي جميل، وحين كانت تعود الطيور متعبة، كانت تجلبُ معها بعض الأحيان طيوراً أخرى.

كانت تلك الطيور الجديدة، قد خانت على ما يبدو أصحابها وبيوتها القديمة، فيسرع خالي بقتلها، ويرمي جثثها إلى القطط والكلاب.

وذات مرة، أخبر خالي أحدهم عن طيور الشام، ونصحه بأن يقتني بعضها، تحمّس الخال واقتنع بالفكرة، وبعد يومين ذهب إلى المدينة...

وعاد مساءً...

كنتُ أنتظره على سطح دارنا... لوّح لي بيده فنزلت إليه...

كان في الكيس حمامتان جميلتان، حزينتان، لونهما أبيض، وعلى أجنحتهما بقع سوداء صغيرةٌ.

قال خالي دون أن أسأله:

إن ثمن الحمامتين يفوق ثمن طيوري جميعاً!

قصّ جناحيهما، ثم أدخلهما العلبة وأغلقها بإحكام، وقال ونحن ننزل الدرج:

الطيور مثل الناس، غالباً ما تخون.

لم أفهم وقتها قصده تماماً.

كان يعود بين الوقت والآخر ليصعد السّطح ويتفقد الحمامتين...

وبعد مضيّ حوالي شهرٍ، ناداني لكي أصعد معه لنطيّر الحمامتين السّجينتين.

مدّ يده... أمسك بهما وقال وهو يخرجهما من العلبة:

سوف ترى الآن روعة التّحليق يا خال... إنه تحليقٌ ولا أروع منه، ثم أطلقهما فجأة من بين يديه...

ارتبكت الحمامتان في البداية، لكنهما توازنتا بعد دقائق وانطلقتا في الفضاء الرّحب...

كان تحليقاً رائعاً، كما قال خالي، تحليقاً ولا أروع منه... وفي لحظة ما ابتعدتا... ابتعدتا كثيراً... وغابتا عن أنظارنا تماماً .

انتظر خالي عودتهما... لكن دون جدوى...

غضب الخال وزمجر، وبقي طوال ذاك النهار حزيناً، مضطرباً.

في المساء، اتصل صاحبهما من الشام، وطلب من خالي الحضور لأخذ الحمامتين اللتين عادتا إلى بيتهما القديم.

فرح خالي وقبّلني بسعادة...

كان فرحه في ذاك المساء لا يُوصف، إلى درجة أنه ذهب إلى السوق وأحضر الحلوى ووزّعها علينا، وعلى الجيران...

وفي الصباح الباكر، ركب الباص المتّجه إلى الشام.

بيد أنّه لم يصل!

عاد محمولاً إثر حادث أليم!

ولشدّة حزننا عليه، قمنا ببيع جميع الطيور التي كان يربيّها، لكن الغريب في الأمر أن بعض تلك الطيور كانت تعود إلينا بين وقت وآخر...

واليوم، ربما أتفهّم بعض الشيء ما قاله خالي ذات يوم، فهناك طيورٌ سعرها رخيص، حين تطير تنسى مسكنها ولا تعود إليه، وبعضها سعرها غالٍ، لها ماضٍ، مهما حلّقت وارتفعت، لا تنسى... ودوماً تعود.

* * *

أكثر من مرة حدث ذلك...

وحتى هذه اللحظة، لم يكتشف أحد الفاعل، وكنت أندهش تماماً، وترتسم فوق وجهي خطوط من حيرة وقلقٍ وترقّب، وتتّسع عيناي وترتبكان بضجيجٍ من الأسئلة والاستغراب:

غريبٌ... من فعل ذلك؟!

كانت الأشياء تبدّل أماكنها بسهولة داخل بيتنا الصغير، وكانت ثيابنا وأحياناً ثياب بعض الجيران المنشورة على حبال الغسيل تبقى طوال الأسبوع مبلّلةً، وأحياناً تطول الفترة في فصل الشتاء.

أحدهم كان يبلّل ثياب الغسيل، وأحدهم أيضاً كان يسحبُ مأخذ البراد ويقطع التيار الكهربائي - يفصل التيار من الساعة الصغيرة المعلّقة فوق الباب - وهو نفسه - وأنا متأكد من كلامي - كان ينقلُ أغراض الجيران، ويبدلُ أماكنها...

كان يفعل ذلك دون أن يترك أيّ شيء يدلّ على شخصيته، أو بصماته، كان - كما تقول أمي، حرامياً محترفاً بمعنى الكلمة - لكنه حتى هذه اللحظة لم يفعل أي شيء يؤذي الآخرين أو يُسيء إلى سمعتهم .

قالت أمي ذات يوم:

« هذا من فعل الجن والشياطين... الله يجيرنا»

وجدتي كانت تخبرني عنهم باستمرار . تقول:

«إن الجن يستعيرُ أحياناً الثياب والطناجر والصحون، وأرغفة الخبز ، ثم يُعيدها إلى أماكنها تماماً بعد فترة من الزمن، إنه أمينٌ وصادقٌ، رغم تسميته بهذا الاسم، فليس من الضروري أن تُعبّر الأسماء دائماً عن مسمياتها...»

ثم تضيف أحياناً هذه الجملة:

«طبعاً... قد نجد البعض منهم غير أمين وصادق... مثلهم مثل البشر»

وكنت أحاول أن أصدّقها...

أتذكّر ذلك الآن وأضحك... أضحك بصوتٍ عالٍ حين أكون وحيداً، وبيني وبين نفسي حين أكون مع جدتي وأمي...

أكثر من مرة حدث ذلك ...

حتى بدا الموضوع طبيعياً جداً، فقد اعتادت الجدة والأم وبعض جيراننا على رؤية هذه التّصرفات الغريبة، التي كان يقوم بها الجن والشياطين.

-٢-

لكن جدتي كانت أحياناً تثير شكوكي، تحدّق إلى وجهي وتبتسم ابتسامة غريبة، كانت تُشعرني دائماً أنها تخفي شيئاً خلف ابتسامتها تلك، ربما أشياء عديدة عن الجن والشياطين.

تبتسم في وجهي وعيني، وكأنّها تعرف الحقيقة، وتنتظر الفرصة المناسبة لتقولها..

وكنتُ مثلها أنتظر...

-٣-

مرة أخرى...

وسط العتمة الموحشة...

الجن يحمل ثياب الجدة وفستان أمي الأزرق ويكوّمها على السطح... هذه المرة ستكون المفاجأة كبيرة لأمي وجدتي...

وفي اللحظة التي استدرتُ فيها عائداً من على السطح رأيتها... كانت تقف ورائي تماماً، وبيدها عصا طويلة، مستعدّة لأن تنهال بها على رأسي دون رحمة...

وللحظة سريعة وخاطفة كالبرق، وجدتُ نفسي أحاول الصراخ أو الاستغاثة، لكن ابتسامتها الطيبة أنقذتني من خوفي وارتباكي.

فجأة، رأيتها تبتسم في وجهي...

تلك الابتسامة التي كنتُ أشكُّ فيها باستمرار...

* * *

فزّاع الطيور

ذات مساء، بينما كنت ألعب حول المقبرة، عثرت على جمجمة إنسان...

وللوهلة الأولى لم أخف، فقد اعتدت أن ألعب مع رفاقي بالجماجم المبعثرة حول سور المقبرة القديم. لكن هذه الجمجمة كانت مرعبة حقاً. وتبدو حديثة، فالديدان لا تزال عالقة بها... تنغل آكلة بقايا اللحم المهترئ، الملتصق حول العينين المظلمتين، وداخل الفم الكبير المرعب!

رغم ذلك، لم أخف أو أرتعب، بل حملتها سرّاً إلى حقلنا تحت مطر الخريف، وأنا أضحك بيني وبين نفسي:

ستموت العصافير رعباً وهلعاً، كما أن أبي سيرتعب أيضاً، حين يراها!

نزعت رأس فزّاع الطيور الموجود وسط حقلنا، ثم ثبّتُ مكانه الجمجمة... وعدت مسرعاً إلى منزلنا الصغير، كأن شيئاً لم يكن...

وفي الليل كان الكابوس مروعاً...

... فزّاع الطيور يتحرّك في حقلنا الصغير ويركض بجمجمته عائداً إلى المقبرة القريبة من منزلنا...

وهناك، أراه... فأسأله بقسوة:

لماذا عدت؟

لا يجيب، يتابع تقدّمه نحوي...

أكرّر:

قلت لك، ماذا جئت تفعل هنا؟ مهمتك إخافة الطيور والثعالب هناك في حقلنا...

يتقدم دون أن يكترث لكلامي، وتفتح الجمجمة المحشوة ديدانٌ مقرفة فمها، وعينيها المظلمتين، وتمتد أصابع من رعب وهلع وخوف لتقبض على عنقي... فجأة أصرخ منطلقاً برعب وهلع شديدين...

ويلحق بي فزّاع الطيور...

وكانت بلدتي نائمة... والسكون يخيم ويكفّن كل شيء... وأنا وحيد... أركض بفزع شديد، يتبعني فزّاع الطيور بخطوات واثقة، متوحّشة، أظنه يريد افتراسي، وامتصاص دمي...

أركض أيضاً... أركض وأركض...

وحين استيقظت، حاولت أن أنسى... مخفياً كابوسي عن الآخرين... إنما والدي سألني إن كنت قد غيّرت أو نقلت فزّاع الطيور إلى مكان آخر... فقلت وقلق رهيب يزلزل أحشائي، ويشعل الخوف في روحي:

لا... لم أذهب إلى الحقل أبداً...

قال والدي مستغرباً:

إذن أين اختفى فزّاع الطيور؟!

وبدأ القلق يغلي في رأسي، وتذكرت الحلم الذي أرعبني في الليلة الماضية...

في اليوم التالي، ذهبت سراً إلى الحقل لأتأكّد...

وتأكّدتُ بنفسي...

لم يكن فزّاع الطيور موجوداً، بثيابه الممزقة وجمجمته المهترئة، المليئة ديدانٌ شرهة... لكنني رأيت آثاراً لأقدام غريبة مرسومة فوق التراب الخريفي المبلل بمطر أيلول... وتأكدت من أنها متجهة نحو المقبرة، فازداد رعبي، وكبر خوفي وقلقي...

- ٢ -

وفي إحدى الليالي المظلمة رأيته...

أجل...

في عتمة الليل، رأيت فزاع الطيور وراء نافذتي... كسر الزجاج، ومدّ أصابعه المرعبة وفتح النافذة، ثم دخل...

صرخت...

صرخت بكل ما أملك من قوة وخوف... ملأ صراخي المتتابع، ورعبي الشديد سكون الليل، وصمت البلدة النائمة.. استيقظ والدي وأمي وأخوتي، وجميع الجيران... ورأيته يقفز هارباً من النافذة المفتوحة...

وكان حطام الزجاج جزءاً من حقيقة ما شاهدت، ودليلاً واضحاً على أن شيئاً ما قد حدث...

أخبرتهم أنني رأيت فزّاع الطيور... كسر زجاج النافذة ودخل ليأخذني... فلم يصدق أحد،وقال بعضهم إن ما رأيته كان حلماً مزعجاً، وإن تحطم زجاج النافذة، ربما كان سببه قطةً ضالّة، أو طيراً اصطدم بالنافذة ثم عاد ليطير...

-٣-

لم يدعني والدي بعد تلك الحادثة أن أنام وحيداً، ورغم ذلك حلمت بفزاع الطيور أكثر من مرة... إنما، مع مرور الوقت بدأت أنسى وقد مضى على ذلك اليوم أكثر من ثلاث سنوات نسيت خلالها قصتي مع فزّاع الطيور، ونسي أهلي والجيران ما حدث لي ذات ليلة خريفية موحشة...

وفي أحد أيام أيلول...

كنت وحيداً...

ذهب أبي وأمي وأخوتي إلى المدينة، وقالوا إنهم سينامون هناك في منزل خالتي...

ولم أتذكّر أننا في أيلول...

لم أتذكّر رعبي القديم، وهلعي...

كنتُ وحيداً...

وكان مطر الخريف يبلّلُ سطوح الأبنية والشوارع المعتمة، ونوافذ المنازل، والحقول البعيدة...

عدت مساءً إلى المنزل، وكنت جائعاً، فأكلت كثيراً... وجلست في غرفتي أرقب من وراء الزجاج مطر الخريف...

عندها... تذكّرتُ...

تذكرت فجأة، ودفعة واحدة كل ما حدث معي منذ حوالي ثلاث سنوات...

وفي تلك اللحظة سقط شيء ما داخل المطبخ وتحطّم... أسرعت إلى هناك، ثم طردت قطة رمادية لا أعرف كيف دخلت... وعدت لأنام في مكتبة والدي، وقد ازداد مطر الخريف جنوناً وشراسة...

وبعد محاولات عديدة، استطعت النوم...

وفي منتصف الليل وعتمته، استيقظت على طرقات خفيفة تقرع النافذة...

فتحت عيني...

لم أصدّق في البداية...

انتابني واحتلّني فجأة الرعب والفزع...

كان فزّاع الطيور بجمجمته المنهوشة، المليئة ديداناً شرهة يقف خلف زجاج النافذة ويبتسم...

مدّ يده وكسر الزجاج...

ازداد رعبي وفزعي...

فتح النافذة بأصابعه الطويلة ودخل...

سمعت وأنا ممدّدٌ فوق الفراش ضحكته المفزعة، ووقع خطواته الثقيلة على بلاط الغرفة وهو يتقدّم نحوي...

حاولتُ الصراخ...

حاولتُ بكل قواي... لكنني لم أستطع...

* * *

مستودع الجثث

قرّر وحيد البحث عن والده الذي خرج ذات صباح ولم يعد حتى الآن...

صعد وحيد درجات مشافٍ عديدة، سائلاً بكل حزن وألم عن والده العجوز، شارحاً مظهره الخارجي ولون وجهه وعينيه.

وفي أحد المشافي الكبيرة، قاده حارس مستودع الجثث إلى باب كبير، فتحه ببطء وهو يقول:

في الداخل جثث لم نتعرّف على أصحابها...

ثم همس بأذن وحيد:

أتخاف أن تبحث وحدك؟.

أجاب وحيد بفخر واعتزاز، وهو يمسك طرف شاربه:

«ولو... محسوبك قبضاي بيعجبك!»

ابتسم الحارس...

كان الوقت قبل المساء بقليل، وكانت ريح مجهولة تعوي بضراعة ووحشية بين الأزقة والحارات القديمة، القريبة من المشفى.

أضاء الحارس المستودع، وفتح الباب أكثر، ثم مدّ يده مردداً:

تفضل يا أستاذ.

ثم تابع بعد صمت:

معك نصف ساعة.

- وبعدين؟

- وبعدين... تريد أن تبقى بينهم، لا مانع لدي أبداً.

ارتجف وحيد:

لا... دخيلك.

قال الحارس:

أنا مشغول الآن، سأعود إليك... هيا ادخل ولا تضيّع الوقت.

دخل وحيد...

لم يكن يعرف أنه سيبحث وحيداً عن جثة والده، بين هذه الجثث... الممددة فوق الطاولات الواسعة...

وفي لحظة شاردة قرر العودة، لكنه شعر بالخجل، وبعد تفكير قصير، مليء بالخوف والقلق حرّك قدميه ودخل.

كان المستودع مكوّناً من صالة واسعة، باردة جداً، ومليئة بجثث عديدة، ممدة فوق طاولات ومغطاة بشراشف بيضاء، وسخة.

وأول وجه شاهده وحيد، بعد أن أبعد أحد الشراشف، كان وجهاً مرعباً لعجوز، عمرها أكثر من مئة عام، عيناها مفتوحتان، تحدقان بقسوة نحو الأعلى...

ارتجف وحيد، وأعاد الغطاء بسرعة خاطفة وهو يردد:

بسم الله الرحمن الرحيم... أعوذ بالله... أعوذ بالله...

انتقل إلى جثة ثانية، قريبة، أبعد الغطاء بهدوء، فظهر فجأة وجه رجل ضخم، أسنانه بارزة، وإحدى عينيه مقلوعة.

- يا لطيف... يا لطيف!!

ابتعد وحيد، دون أن يعيد وضع الغطاء على وجه الرجل، وقف حائراً، بين الطاولات، تملؤه رائحة الموتى والعفونة، التفت نحو الرجل فبدا له أنه يتحرك... أسرع وحيد بالابتعاد نحو الداخل... وهناك اختار جثة أخرى. كانت لامرأة مشوّهة، يبدو

أنها احترقت في حادث ما، لحم وجهها معجون، ومترهّل بشكل مخيف... وفي اللحظة التي حاول وحيد تغطية الجثة من جديد سمع انغلاق الباب، ثم أنطفأ النور فجأة...

صرخ وحيد دون شعور:

النجدة... دخيلكم يا جماعة...!!

حاول الركض باتجاه الباب... لكنه تعثر وسقط بين الطاولات... نهض بسرعة وارتباك، وبدا له أن جميع الأموات بدؤوا يتحرّكون... وسمع بعضهم يضحك، ويقفز... هنا... وهناك...

وفي ظلمة المستودع شعر وحيد أن الجثث تقترب منه... ومن بينها جثة العجوز، والرجل صاحب الأسنان البارزة، والعين المقلوعة...

زحف وحيد، برعب وصعوبة شديدين نحو الباب الكبير، وحاول فتحه، لكن أصابع الجثث كانت قد وصلت إليه...

في الصباح... حين فتح الحارس باب المستودع، وجد شاباً ميتاً، مكوّراً على نفسه، وقد بدا على وجهه الفزع والتقزز!!

* * *

الجثة المعلّقة...!!

منذ أكثر من عشر سنوات، رأيت منظراً لن أنساه مدى حياتي.

«أمسية حزينة، من أمسيات الخريف... أمي العجوز خرجت منذ قليل لعيادة جدتي المريضة.

خرجت وتركتني وحيداً...

ومن باب الخوف والاحتياط، أغلقت باب غرفتنا الصغيرة جيداً، وعدت لأنام...

دقائق قليلة... قرع الباب...

فتحت عيني، ثم سألت بقلق:

من؟

- افتح يا حسن... أنا سميحة.

كنت أعرف جارتنا سميحة، وأميّز صوتها الناعم، ولون عينيها، ولسبب كنت أعرفه تماماً كانت تأتيني في جميع أحلامي... أحلم بها

أحلام وردية، لذيذة، ودافئة... وأتمنى دائماً أن تأخذني معها، إلى عالم بعيد، بعيد...

كنت أعرف أن سميحة تحبني، ودليلي على ذلك، أنها كانت تجلب لي الحلوى باستمرار، تسأل عني أمي، وجدتي، وأولاد الجيران.

- حسن... افتح يا حسن... افتح.

أنقذني صوتها من شرودي... نهضت بسرعة لأفتح الباب...

دخلت سميحة، حزينة بائسة، وفي عينيها بحر من دموع مالحة، غزيرة... سألتني عن أمي. فقلت أنها ذهبت لزيارة جدتي المريضة.

قالت:

عظيم... عظيم جداً

- ما هو العظيم جداً يا سميحة؟!

- أن نبقى وحيدين.

لم أفهم... سألتُ بشيء من الارتباك:

سميحة... ماذا تقصدين؟!

أجابت وهي تمسح شعري بيدها الطرية:

«يا لك من طفل وديع، مسكين».

ثم أضافت وهي تسحب من بين ثيابها حبلاً ثخيناً:

لك نصيب في أن تراني وأنا أشنق نفسي.

لم أفهم أيضاً...

- سميحة... ماذا تقصدين بالضبط؟!

- أنت ولد طيب، ولا تزال صغيراً على فهم مثل هذه المواضيع.

- أي مواضيع؟

لم تجب... حدّقت إلى السقف لعدة دقائق، ثم سحبت الطاولة من زاوية الغرفة، ووضعتها تحت الحديدة المعقوفة، المعلقة بالسقف. صعدت على الطاولة، وحاولت عدة مرات ربط الحبل الثخين بالحديدة، حتى نجحت أخيراً، شدّت بيدها الحبل، وتأكّدت من ربطه بشكل جيد.

- تمام...

قالت ذلك وابتسمت ابتسامة شاحبة وكئيبة، حتى شعرتُ بخوف أسود يدخل إلى نفسي.. وحزن يحرق أعصابي.

بقيتُ صامتاً...

ربطت سميحة طرف الحبل حول عنقها، لفته جيداً عدة لفّات، وعقدته عقدة قوية، قاسية.

ووجدت نفسي أهمس بصوت بطيء خائف: س... س... سميحة، م... ماذا ستفعلين... سوف تأتي أمي بعد قليل...

- «عندما تصل أمك، سأكون قد شبعت موتاً...» ... هيا يا صغيري، أنظر إليّ جيداً وتعلّم... فربّما سيأتي يوم ما وتفعل مثلي.

- ولماذا سأفعل مثلك؟!

أجابت:

حين تكبر لن تستطيع تحمّل جنون هذا العالم ورعبه!

لم أفهم أيضاً...

ضحكت سميحة بشيءٍ من القهر واليأس، كأنها تريد الانتقام دفعة واحدة من شخص ما، خانها ربما، أو اغتصبها عنوة.

فجأة، صمتت، ثم حدقت في وجهي:

والآن جاء دورك.

انتابني خوف شديد، ملأ روحي رعباً أسودَ كئيباً، وأحسست بصرخة حادة تصعد إلى فمي، لكن لساني لم يستطع أن يطلقها بعد أن سمعت سميحة تردد:

هيا يا حسن... أبعد الطاولة، أبعدها...

هيا يا شاطر، ألا تحبني... هيا... افعل يا صغيري ما أقوله، وأطلبه منك...

ولأنني أحب سميحة حباً كبيراً، بريئاً، وملتهباً، أبعدتُ الطاولة بقوة وأنا أغمض عيني...

قفزت سميحة في الهواء عدة قفزات، سريعة، ومتتالية، ثم تأرجحت في فضاء غرفتنا وهي تتخبّط كعصفور جريح، وتبتلع ريقها بصعوبة... بصعوبة بالغة... وما هي إلّا دقائق قصيرة، حتى همدت، وتوقّفت عن التّخبط...

وبصعوبة أيضاً، سمعت نفسي أردد:

س... س... سميحة... سميحة...

ولعدة ساعات، بقيتُ أحدّق في الجثة المعلقة، مُفكّراً بأمي التي تأخرت كثيراً، وبجدتي المريضة... وربما بالطريقة التي سأعلّق بها نفسي ذات يوم...

* * *

قوي... كالحب...

كلّما رأيتكِ خفق قلبي واضطرب... يرتبك، يرتعش ويرتجف كأنه لم يرتجف من قبل، يصعد ويهبط... حتى أكاد أحس أنه سيهرب مني... إليكِ...

واليوم... جئتِ أيضاً، وكنتِ أكثر روعة وبهاء... وأشد تألقاً، وكنتُ قد كتبتُ لعينيكِ الحالمتين رسالة، أعترف فيها بحبي الصامت، والمجنون...

دخلتِ...

وقلتِ كما في كل مرة:

صباح الخير... كيف حالك؟

سلّمتِ عليّ بحرارة، كما لو أنك تسلمين لأوّل مرة على رجل، كما لو أن يدك الناعمة لم تلامس يداً خشنة من قبل... عندها، خفق قلبي بشدة، وكان في تلك اللحظة داخل عينيكِ الفاتنتين دهشة رائعة، وحلم لم يكتمل.

ولعلكِ رأيتِ الرسالة، الملفوفة بعناية بين أصابعي، إنما لم أعطكِ إياها، لم أجرؤ، فقط تركت قلبي يخفق ويضطرب... يخفق ويضطرب... ويضطرب لعلني كنتُ، وما أزال، في أشد الحاجة إلى إنسان يجعلني أحس بوجودي، واستمراري، بعد كل ما حدث.

- ٢ -

كان تقرير الطبيب يقول:

«لا داعي للقلق، التهاب بسيط في القدمين، سننقله إلى المشفى».

وكنت أعرف أن وقوفي الطويل في العمل، وصعودي إلى الطابق الخامس ونزولي، جزء من ذاك الالتهاب، أما الجزء الأهم، فقد كان ما أقدمت عليه قبل أن تذوب الثلوج، وتُفتح الطرق إلى قريتي الجبلية، البعيدة...

جئت إلى هذه المدينة منذ عدة سنوات، لأعمل وأدرس في آن... ثم أرسل في نهاية كل شهر بعض النقود إلى أمي العاجزة، المنتظرة دائماً...

بيد أن ثلجة كبيرة جاءت، غطت منازل المدينة، وقطعت الاتصالات، وخطوط الهاتف والكهرباء والطرق بين القرى والمدن... وقد لمتُ نفسي وأنّبتها كثيراً على تأخري في إرسال النقود، فقد مضى على نهاية الشهر حوالي عشرة أيام، ولم أرسل النقود، وها هو الثلج قد جاء، وقد تتأخر النقود في الوصول إلى أمي أسبوعاً آخر...

إنما ابن عمي، استطاع أن يقطع مسافة ثلاثين كيلو متراً بحذاءٍ «نوع أوّل» إلى غرفتي الصغيرة.

قال وهو يدخل:

هيا... حضر نفسك.

- إلى أين؟!

- إلى البلد

قلت مبتسماً:

بصراحة، لا أستطيع الذهاب معك، حذائي بالٍ ومثقوب.

قلت ذلك وانفجرت ضاحكاً...

سلّم على والدتي، وقبّل رأسها بالنّيابة عني، وأعطها هذه النقود...

قاطعني وهو ينظر إلى النقود نظرة ازدراء:

لم آت من أجل هذا... أمك مريضة، مريضة جداً، وقد...

لا أعرف كيف ارتديت ملابسي بسرعة عجيبة، ثم أغلقت باب غرفتي وركضت وراء ابن عمي فوق الثلوج الباردة، ناسياً كل شيء، إلّا صورة والدتي العجوز... ظهرت في نفسي فجأة وفوق عيني، وبقيت طوال الطريق تتراقص أمامي، وترفض بشدة وعناد أن تغيب أو تختفي.

-٣-

كانت الثلوج غزيرة، عاصفة، وصلنا بصعوبة كبيرة إلى القرية بعد عدة ساعات، وقد نسيت فجأة بعد وصولي بدقائق تعبي، وذاك الصقيع الذي خزّنته قدماي طوال الطريق، ليحل مكانه صقيع آخر، صقيع له طعم العلقم، ورائحة الموت والرحيل.

بقيت في قريتي عدة أيام، بعد دفن والدتي، إنما بدأت أشعر في اليوم الرابع بشيء ينخر أصابع قدمي ويأكل اللحم والعظام بهدوء... بهدوء...

قال الطبيب، إنني بحاجة إلى دخول المشفى...

وكانت الطرق قد فتحت، إنما الثلوج لم تتوقف أبداً... بقيت تتساقط ببطء... نُقلتُ إلى هنا، ولم أكن أتوقع أن يحبّك قلبي إلى هذا الحد... وأن أخرج بعد عدة أشهر من ذاك المشفى بلا قدمين، وعلى كرسي متحرّك!!.

* * *

حدث ذلك في ليلة مثلجة...

حين كان عنتر وزوجته عائدين إلى منزلهما...

وكان عنتر قوياً، قوة غير طبيعيةٍ، طويلاً، وعضلاته مفتولة، واضحة، ولا أحد يحييه دون أن يخفض رأسه خوفاً، أو خجلاً.

بالمختصر المفيد، كان عنتر زعيم الحارة... إنما أحد الرجال أراد إهانته، والنيل منه.

قال عنتر لزوجته:

أنا أقوى رجل في هذه المدينة.

- معك حق.

- كيف عرفتِ؟

- لقد اختبرت قوتك أكثر من مرة.

فرفع عنتر رأسه، ثم ضحك ضحكة عالية، مسموعة، وكان الفضاء حينها شرشفاً من عتمة شديدة، تزينّه نداف الثلج المتساقط

بكثافة وهدوء... فجأة... ظهر رجل ملثّم من وراء الأشجار البعيدة، سأل بصوت منزعج:

هيه... أنت، أنت هناك، توقّف يا قليل الأدب!

فتوقّف عنتر وزوجته، واختفت بسرعة ابتسامته، ليظهر مكانها تكشيرة غاضبة، نزقة.

أمسك يد زوجته، وضغط عليها برفق:

لا تخافي.

سأل الرجل الملثّم:

لماذا تضحك بصوتٍ عال؟!

فهزّ عنتر رأسه، وصاح:

ألم تعرفني... أنا عنتر.

- طز.

لم يصدّق عنتر ما سمع... ترك يد زوجته وتقدم نحو الصوت، غاضباً، مزمجراً... إنما رجل آخر ظهر أيضاً من خلف الأشجار المقابلة، تقدم بسرعة من الزوجة، أمسكها من ذراعها بقوة، فصرخت المرأة، ونادت عنتر...

لكن الرجل سحب مسدّساً من معطفه وغرس فوهته بين ثيابها:

عنتر... ابق عندك، وإلّا خسرتها.

وكانت زوجة عنتر امرأة فاتنة، يشتهيها جميع رجال المدينة، ولا أحد يستطيع أبداً أن يكلّمها دون أن يحسب ألف حساب، وقد عُرف عن عنتر ولعه الشديد بها، وحبه المجنون لعينيها الساحرتين، إنما عنتر لم يستطع إنجاب الأطفال برغم شجاعته، وقوته النادرة.

تسمّر عنتر في مكانه، ولأول مرة تنتابه مرارة كهذه، سأل محاولاً تهدئة غضبه:

من أنتما، وماذا تريدان؟!

- ابق مكانك، ولا حركة!

وما هي إلّا دقائق، حتى سمع هدير سيارة... توقفت قرب زوجته، فتح الرجل صاحب المسدس الباب، وأدخل المرأة عنوة... وحين حاول عنتر التقدم، انطلقت رصاصة حمراء كادت أن تخترق رأسه...

وتناهى إلى سمع عنتر المتجمّد في مكانه كأنه في حلم، صوت يردد:

ليلة سعيدة يا عنتر... ليلة سعيدة...

بقي عنتر تلك الليلة المثلجة ساهراً حتى الصباح، وحين عادت زوجته استقبلها بحرارة، قبّلها طويلاً، دون أن يسألها عمّا حدث لها... ضمّها إلى صدره برفق، وطلب منها أن تنسى ما جرى... بيد أن الزوجة لم تستطع ذلك، لأن شيئاً ما بدأ ينبض ويختلج في أحشائها...

* * *

ثلج الليالي المتأخّرة...

إنها تُثلج منذ ليلة أمس... حتى هذه الساعة...

ثلج بارد، كئيب وحزين كوجهي، ثلج يرسم في مخيلتي صوراً لذكريات بعيدة، دافئة، وحنونة...

وصلتُ متأخراً هذا المساء، كانت أمي العجوز لا تزال ساهرة تنتظر عودتي - كعادتها دائماً - إنها عجوز، تبقى وحيدة طوال النهار... وزمناً يتجاوز ثلاث أو أربع ساعات في المساء... تبقى وحيدة حتى عودتي من العمل، وأحياناً تقضي الليل تنتظر عودتي بقلق وخوف... أعود إليها في اليوم التالي، أو بعد يومين، لأجد بانتظاري أسئلة حائرة:

لماذا تأخرت يا بني؟!

- شغل يا أمي... شغل.

- الله يقطع الشغل وساعته.

تقبلني كأنها لم ترني من سنين، ثم تضمني وهي تخفي دمعتين كبيرتين:

«يا روح أمك، لا تتأخر مرة ثانية...».

فأهز رأسي، دون أن أجيب...

حقاً إنها وحيدة، لا يؤنس وحدتها القاسية سوى قطة صغيرة تموء باستمرار وتلعب وحدها...

- ٢ -

في كثير من الأحيان، كنت أعود متأخراً، بسبب ضغط العمل، وضغط الزمن، وضغط الحياة... فأنا موظف بسيط، وأنتم تعرفون أن الوظيفة البسيطة لا تكفي هذه الأيام، وبالتالي أنا بحاجة إلى عمل آخر يسند وظيفتي البسيطة، ويسندني.

أخرج من غرفتنا الصغيرة كل صباح، حوالي السابعة، وأعود حوالي العاشرة مساءً، وأحياناً كثيرة أتأخر في المطعم... فأنام هناك.

في الحقيقة أعمل فوق طاقتي، لأكون بمستوى المسؤولية:

«تأمين حاجات المنزل، وأجار الغرفة الصغيرة، ومشروع زواجي في المستقبل البعيد... البعيد...»

لكن أمي كانت تُحزن روحي بسؤالها الدائم الوحيد:

لماذا تأخرت؟!

لم يحدث أبداً ولاحظت أن أمي العجوز تكون نائمة بعد عودتي، إنها دائماً تنتظر... ولا تنام إلّا حين تتأكد من عودتي، في حين تبقى القطة الصغيرة الممددة فوق الفراش، ترقبني وتتأمل حركاتي بشيء من الحب والطيبة...

-٣-

كانت السماء لا تزال تثلج...

وكانت العجوز لا تزال تنتظر عودتي...

هي التي فتحت لي الباب هذه المرة، وسألتني بكلمات عاتبة، تفيض حزناً:

لماذا تأخرت؟

- شغل يا أمي شغل.

- آه يا بني... وألف آه!...

قلت مستغرباً:

سلامتك من الآه يا أمي، خير، هل حدث شيء ما في غيابي؟!

- أبداً، ولكن يجب عليك ألا تتأخر، وأن تعود باكراً... إنني لم أعد أحتمل هذه الوحدة القاسية، أنا بحاجة إلى إنسان يؤنس وحدتي، ووحشتي في آخر أيامي المعدودة.

احتلني شعور مخيف، وتسلق جدار قلبي قلق مبهم، وسمعت أمي تربّت على رأس القطة الصغيرة وهي تردد:

أجل... لقد أصبحت أيامي معدودة، وسوف أذهب... أجل سوف أذهب.

تنهدّتْ... ثم نظرت من النافذة وابتسمت ابتسامة حزينة لتلك الثلوج البيضاء، المتساقطة فوق الجبال، ومنازل المدينة...

- ٤ -

هطلت الثلوج هذه الليلة أيضاً... وتراكمت فوق زجاج النوافذ، وسُمع مواء القطط في شوارع البلدة، وعواء الذئاب وعراكها في الوادي القريب.

نامت أمي العجوز، بعد أن تأكدت من عودتي، ولا أعرف تماماً ماذا أصابني هذه الليلة، فلم أقرأ، ولم أكتب، فقط رحت أرقب الثلوج وأفكر جدياً في مستقبلي لو حدث فعلاً ورحلت هذه العجوز عن هذا العالم!...

لقد بدأت أشعر أنها ضرورية لوجودي، ولاستمراري... غداً لن أتأخر، سأعود باكراً لأجلس قرب أمي العجوز الحزينة، فهي حقاً بأشد الحاجة لإنسان تحكي له عن أيامها... وذكرياتها الماضية... قد يكون رحيلها صعباً علي، وقاسياً، وسوف أجد صعوبة سوداء كئيبة في الاستمرار، فكم هو موحش أن يفقد الإنسان أمه.

ماءت القطط مرة أخرى... وسُمع من جديد عراك الذئاب وعواؤها... ولأول مرة، منذ عدة أسابيع، أميز صوت البومة من بين كل الأصوات القادمة من وراء الوادي العميق...

- ٥ -

تواعدت مع نفسي:

«غداً سأعود باكراً... لن أتأخر...».

كانت تثلج أيضاً هذا المساء عندما عدت... لكن الوقت لم يكن باكراً، فقد كان هذا اليوم بالذات طويلاً، قاسياً، ومتعباً أكثر من أي يوم مضى... سأقول لأمي هذه المرة أيضاً الحقيقة، وسوف أقسم لها وأعدها بأنني في الأيام المقبلة لن أتأخر... سأحاول أن أفعل ذلك.

صعدتُ الدرج بهدوء... وقفت أمام الباب الخشبي القديم للحظة... ثم قرعته...

قرعتُ أيضاً...

ولا أعرف تماماً كم من الوقت بقيت واقفاً أمام الباب الخشبي المغلق وأنا أصرخ وأولول وأستغيث بأعلى صوتي... بأعلى صوتي...

* * *

نهايات...

أريد أن أكتب أيضاً، قصة، عن رجل حزين، بائس ومقهور، يحلم باستمرار... وتنكسر أحلامه باستمرار...

رجل يسكن غرفة وحيدة، ذات نافذة صغيرة، ورفوف مرتّب فوقها كتب ومجلات عديدة، ذات أغلفة سوداء، ومذياع قديم، يخرج من داخله آخر جرائم العالم، وهزائم هذا العصر.

رجل وحيد، يقرأ كثيراً، ويتمنى دائماً في كتاباته وخواطره أن يموت في أقرب وقت ممكن...

تلك القصة، تراودني باستمرار، وتلحّ على قلمي وذاكرتي... لكنني لم أجد حتى هذه اللحظة، الصيغة المناسبة، والحدث المناسب!

أتخيّل القصة أحياناً على هذا الشكل:

«كان هناك رجل حزين، ووحيد، يسكن غرفة ضيقة، صغيرة، ومنعزلة، وكان ذاك الرجل يعمل في مصنع لعلب الكبريت، أو

لعلب السردين - لا فرق - وكان يعود دائماً في ساعة متأخرة إلى غرفته، حاملاً معه بعض الأحيان كتباً ومجلات... يقرؤها كلها تقريباً دون ملل... وكانت القراءة والكتابة بالنسبة له، هاجساً، واستراحة من عمل النهار وشوائب وانكسارات الأيام الرتيبة...

وذات يوم... تشاجر مع أحد العمال في المصنع، وفي لحظة خاطفة، وسريعة انتضى ذاك العامل مدية حادة ثم غرسها بشراسة في ظهر ذاك الرجل الوحيد...»

مثلاً... هذه صياغة لقصة ذاك الرجل، لكنني سأحاول في قصصي القادمة أن يكون هناك فرح، وأمل وضياء داخل النص، رغم انكسارات الزمن وهزائمه... نهاية الرجل في القصة الأولى كانت مأساوية... لم يكن ذلك في يدي أو بإرادتي... سأحاول من جديد...

٢ - صياغة ثانية:

كان الرجل الذي يسكن غرفة وحيدة، عائداً من عمله ذات ليلة متعباً، وكانت سماء المدينة تمطر وترعد بقوة... وحين حاول الرجل الجائع، دخول غرفته سمع صوت صاحب المنزل الذي يسكن

عنده يتشاجر مع أحد المستأجرين، أسرع إلى المكان الذي تحول إلى معركة في تلك الدقائق بين صاحب المنزل والمستأجر...

وفي لحظة شيطانية، انطلقت رصاصة قاتلة من مسدس صاحب المنزل، فأصابت الرجل الوحيد في رأسه... سقط بعدها تماماً على أسفلت الشارع، ومات!»

٣- صياغة أخرى:

خمسة رجال، يصعدون الآن الدرج الضيق، ثم يكسرون باب الغرفة الصغيرة، ويدخلون، مقتحمين عزلة الرجل الوحيد.

- ارفع يديك!

فيرفع الرجل يديه مستغرباً:

خير إن شاء الله؟!

فيسأل أحد الرجال:

هل أنت عبد الله... الرجل الذي جاء إلى المدينة منذ أكثر من عشر سنوات، ويعمل منذ أربع سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام في معمل لصنع الأحذية، ويعود دائماً في ساعة متأخرة إلى غرفته، ثم يجلس ليقرأ أو ليكتب حتى طلوع الفجر.

فيهز الرجل رأسه:

صحيح... أنا عبد الله... وأقوم بجميع الأعمال التي ذكرتها حضرتك.

- حسناً يا عبد الله، ارفع يديك وتفضل معنا!

- ولكن، ماذا فعلت؟!

- لا شيء.

فيقول الرجل متعجّباً:

ما دمت لم أفعل شيئاً، لماذا تريدون اعتقالي؟!

فيضحك الرجال، ويردد أحدهم:

لأنك لم تفعل شيئاً، نحن مضطرون لاعتقالك، يجب أن نحقق معك لنعرف ماذا كنت تريد أن تفعل.

ويسأل أحدهم الرجل الوحيد:

ينبغي أن نعرف أيضاً أنت مع مَن؟

فيقول الرجل متذمّراً:

أنا حيادي يا إخوان... حيادي... ولست مع أحد، ولا ضد أحد.

- يا سلام... لا يجوز يا سيد أن تقول هذا الكلام، إنه خطير وملغوم، يجب أن تكون واضحاً وصريحاً... وبالتالي ينبغي عليك أن تحدد تماماً أنت مع من؟

فيكرر الرجل الوحيد أقواله السابقة، عندها يدفعه أحد الرجال بقسوة:

هيا إذن... ارفع يديك وتفضل معنا... على فكرة، يبدو أنك تقرأ كثيراً، وهذا مؤشر واضح وصريح على أنك تملك أفكاراً ربما من شأنها أن تشكل خطورة حقيقية على أمننا واستقرارنا...

فيستغرب الرجل الوحيد هذا التحليل، ثم يرفع يديه ويسير أمام الرجال المسلحين...

وفي الطريق، يحاولون إقناعه بأن يحدد موقفه منهم، ومن العالم:

أنت مع مَن بالتّحديد؟!

لكن الرجل يعود مرة أخرى ليكّرر أقواله...:

يا إخوان... أنا حيادي... بشرفي حيادي... حيادي...

وعند جذع شجرة كبيرة، يربط المسلحون ذاك الرجل الوحيد والحزين، يربطونه جيداً**...** ثم يطلقون النار عليه**...**

هل أُكملُ**...** أم أبعد القلم والورقة**...** ثم أجلس في الزاوية لأبكي**...** لأبكي وحيداً، كما في كل مرة**!....**

* * *

إنه الحب...

مرّ زمن طويل على ذلك الحب العجيب، الذي احتل قلبي ذات مساء... ولا يزال...

«ودورا»، لا تزال صورتها محفورة في ذاكرتي، ومرسومة داخل عيني وحبها ما زال حتى هذه اللحظة ينبض داخل قلبي الصغير... وسيبقى...

إنها فتاة شديدة الروعة، عيناها عالم من نجوم وأسرار، وشعرها شلال من السحر وأحلام الطفولة.

كان لقاؤنا مصادفة...

وفي معرض للصور...

وكانت جميلة، عذبة، وأورع من النساء اللواتي حضرن الحفل، وأجمل من كل الصور... ثم... تعلقت بها فجأة... أسرني ذلك السحر الغافي بين رموشها واللغز الممتع الساكن داخل عينيها الهادئتين.

أنا الشاب الحزين، الذي يبحث عن حب يرمّم روحه المكسورة، وقلبه المكسور، فجاءت «دورا» بكامل شبابها، وجمالها وعذوبتها، لتغيّر مجرى حياتي البائسة، ومجرى دورتي الدموية الملوثة منذ ولادتي. ولتجعلني أفرح... وأضحك... وأغني... وأركض... وأحلم...

أحببت دورا إلى حد الجنون، فكبرت الدنيا في عيني، واتسع العالم من حولي، وأزهر الحزن في قلبي.

كنت أجلس بعد كل لقاء، فوق شرفة غرفتي الصغيرة، أتأمل، وأفكر وأتساءل عن ذاك السر الغريب الذي يستطيع بسهولة أن يبدل حياتك، ويغيرها بين ليلة وضحاها؟! سر جميل، ينقلك من عالم ضيق وحزين، إلى عالم أكبر وأوسع، عالم فَرِحٌ وسعيد، عذب إلى ما بعد الحدود...

آه... ما أروع الحب!!

وكنت أثناء جلوسي أرى دورا مختبئة بين النجوم، فأرفع يدي وألوّح بغبطة، ونشوة:

دورا... مرحباً... أنا هنا...

وكانت النجوم في تلك اللحظات تزداد بريقاً، ثم تلتمع مبتسمة لي بشيء من الحب والمودة.

«النجوم هي أيضاً تحب وتسهر... وتتألم وتفرح...».

عندما كنت صغيراً، كانت جدتي العجوز تخبرني عن ذلك، وتضحك...:

«النجوم يا صغيري هي أيضاً تحب بعضها، لها عواطف وأحاسيس مثل البشر، حبها لا يموت أبداً، ذاك هو سر تلألؤ النجوم الدائم والمستمر...».

- جدتي... وهل تلتقي النجوم، وتتحدث مثلنا؟!

- طبعاً يا صغيري، إنها تلتقي في النهار، بعيداً عن أنظار الناس، وللنجوم لغة خاصة تتحدث بها...»

وكنت أصمت... وأحدق إلى سماء المدينة، المليئة بنجوم كثيرة، عاشقة، وأحلم بفرح وسرور، بنجمة جميلة، أحبها وتحبني مدى الحياة.

وها أنا، يتحقق شيء من حلمي.

فها هي دورا، النجمة الساحرة، المتوهجة برغبة كلها فرح وحنان.

٢ - صورتها لا تفارقني.

مرّ زمن طويل على ذلك... وما زالت صورتها حاضرة في ذاكرتي، ومتوهجة، لا تغيب، ولن تغيب.. أذكر تماماً، حتى

هذه اللحظة، وفي بقية اللحظات التي ستأتي من عمري، أذكر صوتها الهادئ، الرقيق، الذي يشبه وشوشة العصافير، كما أنني أذكر عينيها الفاتنتين، ورائحة يديها التي تشبه رائحة الزعتر البري وأشجار السنديان والصنوبر.

كنا نجلس ونتحدث عن انكسارات هذا الزمن، وهزائم العالم، وعذاب الإنسان... تحدثنا عن ذلك بصراحة ووضوح، واتفقنا على أن الحب هو وحده القادر على إنقاذ الإنسان من موته وانقراضه عن كوكب الأرض.

وكنت من شدة سعادتي، أضم دورا... أضمها بقوة إلى صدري هامساً في أذنها:

أحبك يا دورا... أحبك...

وكانت تضحك، وتنظر في عيني بحب وفرح كبيرين...

جاءت دورا لتضيء نفسي، وقلبي، ومن ثم لأكتشف كم أنا قادر على الفرح والعطاء، وكم هي روحي قريبة من الملائكة، ومن الإله. وربما دورا هي أيضاً اكتشفت أشياءً عديدة كانت مختبئة داخل عينيها الرائعتين، ومدفونة في نفسها.. أشياء لم تكن تعرفها من قبل.

٣- البحث عنها.

أجل...

مرّ زمن طويل، بطيء كانتظاري، وحزين كقلبي.

اتصلت «بدورا» أكثر من مرة... لكن الجواب كان يأتي، كأنه من عالم آخر، بعيد، ومجهول:

- «دورا غير موجودة... لقد سافرت»

لم أصدق...

ولن أصدق، أن دورا سافرت وتركتني وحيداً... بحثت عنها في شوارع مدينتي... وفي وجوه النساء، وعيون الأطفال، بحثت عنها فوق شرفات المنازل ووراء زجاج النوافذ والمحلات التجارية، وسيارات التاكسي... وداخل فناجين القهوة ومناديل العرافات...

انتظرتها عند مطلع كل صباح، تحت الأشجار، وقرب مواقف السرفيس وإشارات المرور، ودور السينما، وفي مراكز البريد... ذهبت أكثر من مرة إلى المقهى الصغير، الذي كنا نلتقي فيه، ونصلي من أجل حبنا، ومن أجل عالم أجمل، وأكثر إنسانية...

أصبح للزمن عندي طعم حزين وكئيب، طعم يشبه طعم الدم، وطعم الملح والرماد.

لم أصدق، ولم يستوعب عقلي وقلبي ما حدث! بأن دورا لن تعود... وقد اختفت فجأة من حياتي كحلم سريع، حتى هذه اللحظة أشعر أنني في حلم... وأنني غير قادر تماماً على تصديق ما حدث...

لم أصدق... ولن أصدق أبداً...

٤ - رحيل...

كانت دورا حلوة، واعية، ومثقفة، وقارئة جيدة للأدب... مرّت في حياتي كنجم كبير، رائع أضاء روحي، وأفرح قلبي الصغير، مرّت كحلم عذب، لا يمكن أن يتكرر، ولن يتكرر، إلّا إذا عادت تلك النجمة إلى سماء قلبي مرة أخرى...

قالوا لي إنها تركت المدينة ورحلت...

لم يحددوا المكان الذي انتقلت إليه... ربما قالت لهم دورا ذلك، لتستمتع بعذابي، وبحثي عنها... لكنني لا أعتقد أنها سافرت... أنا متأكد أنها لا تزال هنا وداخل أبنية هذه المدينة الكبيرة، وإنني مستعد لأن أبحث عنها في كل مكان...

لا شك أنني سأجدها ذات لحظة، هذا الأمل الكبير الذي ينبض بداخلي، ويعيش في قلبي ووجداني يقول لي إنها لا تزال هنا... داخل هذه المدينة، وإنني سأجدها ذات يوم...

٥ - الأمل بالعودة...

هذا الصباح استيقظت باكراً، كان حبي قد عذبني كثيراً طوال ليلة أمس... لقد بدأ هذا الحب يحرقني، ويأكل من لحم قلبي يوماً بعد يوم، ويدمي عيني، ويكسر روحي ألف مرة ومرة...

- أين أنتِ يا دورا... أين أنتِ؟

أخرج إلى الشارع، وأرفع وجهي نحو الله وأنادي:

دورا... دورا...

تمطر السماء فوق المدينة... ينبش المطر الحزين ذاكرتي، ويقلق دمي وأعصابي، ويرسم عينيها بهدوء فوق زجاج النوافذ وفوق وجهي...

كم أنا حزين! وكم يُحزنني ذاك الرحيل، وكم يؤلمني هذا الانكسار الذي أصاب روحي مرة أخرى... ودمّر كثيراً من أحلامي، وأمنياتي.

مرّ زمن طويل على ذلك... وأنا ما زلتُ أبحثُ... وما زلتُ في حالة شوق ولهفة وانتظار، لأن شيئاً ما في داخلي كالسّر يجعلني أؤمن تماماً أنها ستعود...

أو أنها ستتصل بي ذات يوم...

٦ - شتائي الحزين.

إنه الشتاء...

يتساقط المطر الرمادي وراء زجاج نافذتي... وتولول الرياح وتعصف فتتمايل الأشجار وترقص، تنحني، ثم تبكي بمرارة...

أتبكي هذه الأشجار الجميلة من شدة الألم، أم أنها تبكي عليّ؟! صدقاً... كم سأكون حزيناً في هذه المرة!! وكم ستكون وحدتي قاسية، وكآبتي مفجعة!!

جاء الشتاء...

تمطر الغيوم الرمادية خلف نافذتي... يُخرج المطر من ذاكرتي أحزان الماضي البعيد، ويرسم صورة حبيبتي داخل عيني على شكل قلب، أرتدي معطفي الأسود القديم وأخرج...

وفي الشارع الطويل يبللني مطر بارد، ويغسل وجهي الكئيب، فأشعر للحظة واحدة بالفرح... لكن نفسي لا تلبث أن تعود إلى حزنها وانكسارها.

صدقاً... كم سأكون حزيناً ووحيداً هذا الشتاء، لأن دورا تركتني ورحلت!.

أتذكر صوتها مرة أخرى... ونظراتها الحلوة، فتحرقني الذكرى ويشتعل في قلبي الحنين والشوق، فأزداد كآبة... ولأول مرة منذ سنوات أسمع روحي تبكي بقسوة، وتئن.

إنني حزين إلى ما بعد الحزن، وكئيب إلى ما بعد الكآبة، على رحيل نجمتي الجميلة، التي أحببتها بصدق، وجنون...

لا أعرف بالضبط لماذا تركتني هكذا فجأة، دون مقدمات... كان ينبغي عليها أن تأتي للمرة الأخيرة، لتبرّر رحيلها هذا... أتذكرها جيداً الآن.. فأبكي من شدة حزني واكتئابي، ويطول الليل، ويمتد في داخلي إلى ما لا نهاية... ويكبر الحزن في قلبي لحظة بعد لحظة، ويوماً بعد يوم.

- ليتني أموت الآن!!

فأنا وحيد اليوم، مقهور وحزين، ولا شيء في هذا الكون والوجود يمكنه أن ينقذني من وحدتي وقهري وانتحاري سوى هذه الأوراق الموجودة أمامي الآن...

أُخرج أحزاني وهمومي، وأرسمها على شكل كلمات، لعلني أتحرّر قليلاً من هذا الموت البطيء الذي يفترس قلبي وروحي، لعلني أتحرر قليلاً من هذا الانتظار، وهذا البحث الذي يجتاح ذاكرتي كالطوفان... ذاك البحث الذي أشقاني، وسيشقيني دائماً... ويعذّبني...

٧- عادات... وتقاليد جاهزة...

أنتم ربما لا تعرفون كم أحببت دورا... وكم سأحبها...

لقد أحببتها أكثر مني، وأعمق مما يجب، خفت عليها، فقتلني خوفي، أحببتها بجنون، وربما خافت من حبي هذا، ومن جنوني، فتركتني فجأة ورحلت.

قالت لي ذات يوم:

«إنني خائفة عليك من هذا الحب، لا تحبني كثيراً!؟»

ربما كانت دورا تعرف ذلك بفطرتها العميقة، فطرة المرأة الواعية، المدركة... ربما كانت تعرف أن حبنا لن يدوم طويلاً،

ما دمتُ مختلفاً عن أولئك الذين أحبوها من قبل، وما دامت هناك بعض التقاليد والأعراف والقوانين البشرية، التي ينبغي علينا ألّا نتخطّاها.

إن ما يحزنني، ويؤلم روحي هذه القوانين الجاهزة، التي وضعها البشر، والتي ينبغي علينا أن نعيش ضمنها... وننظر إلى العالم من خلالها!!.

إن الحب يشبه الينابيع، فلا تسأل أحداً، ولا تطلب إذناً بالخروج من الأرض حين تريد...

لماذا لا يخترع البشر قوانين خاصة بالحب والجنون؟! قوانين تحمي العاشقين، وتمنحهم فرصة للحب... وللجنون...

لماذا نتفلسف كثيراً... ونقول إننا تطورنا؟...

نحن متخلفون، ومدهونون بقشرة الحضارة ما دمنا غير قادرين على معرفة حقيقة عواطفنا، وحقيقة أنفسنا، وغير مستعدين لإخراج هذه الحقيقة وتلك العواطف التي تضجّ في أرواحنا، بحجة العادات، والتقاليد، وقوانين المجتمع التي تشبه العلب والطبول الفارغة...

لماذا لا تتطور إنسانيتنا بالقدر نفسه الذي تتطور فيه أدواتنا؟!
لماذا نسير عشر خطوات تكنولوجيا إلى الأمام، وعشرين خطوة إنسانياً إلى الوراء؟

لماذا لا نكون - مثلما كنا - أخوة وأصدقاء، وأحبة، وأولاد آدم وحواء، بعيدين عن الحواجز المدمرة من لون وانتماء وعقيدة، وجنسية... ألسنا جميعاً في النهاية ننتمي بأرواحنا وأجسادنا إلى دولة كبيرة وعظيمة اسمها الإنسانية؟!

متى سنخطو خطوتنا الجريئة هذه، ونعلن بصراحة ووضوح حقيقتنا... وحقيقة مشاعرنا؟

أسير في الشوارع مرة أخرى... وتبحث عيناي عنها... فوق شرفات المنازل، وفي أضواء النوافذ، وداخل سيارات التكسي والسرافيس... أقف تحت الأشجار، وأحلم بيدها الدافئة، وعينيها الرائعتين.

آه... وألف آه وآه...

إنني لا استطيع تحمل هذه الوحشة القاسية، وهذه الغربة المريرة، والقاتلة عن عالمي وعن نفسي...

أين أنت يا دورا...

أخطو فوق الأرصفة الوحيدة... تلحق بي وتطاردني رياح الشتاء، وتأكلني وحشة الليل... ثم تبتلعني العتمة...

٨- قبل الانتحار...

أريد أن أكتب بصراحة، قصة حبي مع دورا؟!

أريد الكتابة قبل انتحاري...

لكنني لا أعرف بالضبط من أين أبدأ؟!

رغم ذلك، أنا مصرٌّ، ومصمم على أن أكتب... لأنني لا أستطيع إلا أن أكتب لأتحرر قليلاً من حزني العميق، وكآبتي السوداء المريرة، ولأتأكد بعد ذلك من أنني مازلت على قيد الحياة.

لقد أصبحت الكتابة بالنسبة لي درعاً فولاذياً... تدافع عني، وعن إنسانيتي، وعن حبي وعن دورا... وعن استمراري في الحياة، وتحميني من الجنون والانتحار... إنها الشيء الوحيد المتبقي لدي، بعد أن فقدت أروع إنسان، وأجمل وأعز مخلوق على قلبي: دورا.

لذا... سأكتب أي شيء...

سأعترف بهذه القصة السعيدة، والمعذبة، سأعترف بتلك الكآبة السوداء التي أصابت روحي، وكفّنت العالم من حولي بكفن مبلل بالدم والدموع...

إنني أعيش حالة من الحزن الشديد، والكتابة عن تلك الحالة تفرحني بعض الشيء، وتمتعني، لأنها تعيد إلى مخيلتي صورة حبيبتي والأماكن التي جلسنا فيها، صور الأشجار الخضراء الكبيرة، وأحياناً صوراً عذبة، حلوة، تذكرني بصوتها، وبلون عينيها ودفء شعرها، ورائحة يديها... وربما أشياء أخرى أكثر حنيناً، وأعمق دفئاً...

إن الكتابة عن التجارب الإنسانية هي الأكثر بقاءً، والأعمق أثراً، إنها تدوم... ولن تموت مادامت الحياة مستمرة على كوكب الأرض.

وربما لهذا السبب بالذات، أريد الكتابة عن تجربتي هذه... إن ذلك يزيدني شجاعة، وقوة، إنما في ذات اللحظة يكسر روحي ويعمّق حزني وكآبتي.

غرفتي صغيرة، بسيطة ومتواضعة، مليئة بكتب ومجلات قديمة، وبأوراق بيضاء تنتظر... وفي إحدى زواياها توجد

طاولة خشبية من عهد جدتي، طاولة عمرها عشرات الأعوام، وضع فوقها آلة تسجيل، وشريط «كاسيت» أو أكثر لفريد الأطرش، وأم كلثوم، ونجاة الصغيرة، وأعتقد أن كل ما فيها يتحدث عن عذابي، وعن حبي وجنوني، وعن حزني وشوقي، ولهفتي لرؤية عينيها...

إنها تتحدث عنيّ بالذات... وربما بعد قليل عن موتي.

سيقول بعض الأصدقاء:

مسكين، لقد قتله الحب.

وسيقول آخرون:

لقد نقص مجنون، من مجانين هذه المدينة.

لكنني، مؤمن تماماً أن هناك صديقاً على الأقل سيدافع عني، وعن حبي وانتحاري...

هذا هو عزائي... لن أجد نفسي وحيداً بعد الموت... سأجد من يدافع عن قضيتي علناً، أو ربما سراً.. المهم أنني سأبقى بينهم. ولن أموت وأُنسى بسرعة، لأنني سأترك ورائي قضية... قضية حبي المجنون، وحزني العميق.

أريد الكتابة عن كل ذلك... وكتابة تفاصيل تلك القصة التي عشتها، والتي لا تزال تسكن دمي ووجداني...

صدّقوني...

أريد تماماً - قبل انتحاري - أن أكتب وأعترف... لكنني لا أعرف بالضبط من أين أبدأ...؟!.

٩ - تنفيذ الفكرة...

أنا شخصياً ضد هذه الفكرة الغبية، ضد الانتحار بجميع أشكاله وأنواعه، وضد الهروب من مواجهة الحياة، بالقتل المتعمد للنفس البشرية.

رغم أن الانتحار يكون أحياناً نوعاً من أنواع الشجاعة والتضحية من أجل الآخرين، أو من أجل المنتحر نفسه... إنما الفكرة تبقى غبية... رغم ذلك فقد قررت في هذا الصباح أن أنتحر.

سيطرت على رأسي تلك الفكرة، سيطرة غير طبيعية، ولا أعرف كيف تبخرت أفكاري وقناعاتي فجأة!، من أن الإنسان يجب أن يقاوم، وأن يتحمل ويواجه الوجود لكي يستمر في بقائه.

لكن حبي المجنون لدورا جعلني لا أحتمل رحيلها فجأة من حياتي... جعلني أنظر إلى العالم بعينين سوداويتين، كئيبتين خاليتين من القوة والأمل، تصوران العالم على شكل عفريت أزرق، ينظر إلي في كل لحظة، ويقترب ليقول لي دائماً:

هيا... استعد. سوف أقتلك! وقد استعددت فعلاً هذا الصباح لمواجهة العفريت الأزرق... نسيت كل ما في رأسي من مبادئ وثقافة عامة وغير عامة، وقررت أن لا سبيل لي لكي أتخلص من أحزاني وانكساراتي وتشاؤمي وخيبة أملي إلا ذاك الوحش الأسطوري الذي تخافه البشرية، وتحسب له ألف حساب: الموت!

لم تعد الورقة تحتمل هذا الضجيج الذي يملؤني بالحزن والانكسار، والقلق الدائم، واليأس المستمر... لم تعد الأوراق قادرة على أن تستوعب قهري، وحبي الحزين... لقد أصبحت بأشد الحاجة إلى شيء أشد عمقاً من حالة الكتابة، شيء يحتضن حزني وحبي، ويحميني من الموت والجنون.

لكنني لم أجد...

لذا، ولهذا السبب بالذات، أنا مضطر الآن لأن أموت، منتحراً!

أحضرت «ألبوم» الصور، وشرعت عيناي تودعان صورة أمي وأخوتي وأصدقائي...

كم سيكون حزنك عميقاً يا أمي!

خصوصاً أنني الابن الوحيد المتبقي، والذي لم يتزوج بعد، إضافة إلى أنك لم تريني منذ سنوات، وأنك لم تفجعي بموت أحد أولادك من قبل...

قطع حبل شرودي دقات خفيفة على الباب.. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل...

نهضت لأفتح...

لأول مرة يزورني هذا الشاب... إنه جاري منذ عدة أشهر، يعمل في وزارة الداخلية، رحبت به، ودعوته للدخول... لكنني ما لبثت أن هتفت بيني وبين نفسي بشيء من الفرح:

يا إلهي... لقد اكتملت حلقة موتي.

دعوته للجلوس فوق شرفة غرفتي، ثم خطوت خلفه وأنا أرقب المسدس الأسود الكبير الموضوع على جنبه... سألني وهو يجلس:

أنت فرح اليوم، أليس كذلك؟

- وكيف حزرت؟

- ولو يا رجل... المهنة علمتنا الكثير.

ابتسمت ابتسامة كبيرة، لأؤكّد له أنني عند حسن ظنه، شاعراً أن هناك طفلاً ما يبكي بداخلي وينتحب...

جلسنا في الشرفة، مد يده وتناول المسدس:

إنه يضايقني حين أجلس.

- هاته... سأضعه في الداخل.

ارتجفت يداي حين أمسكته...!

ولسببٍ ما تذكرت دورا...

ظهرت صورتها فجأة في رأسي، ثم رأيت لون عينيها، وسمعت صوتها الجميل يتردد في داخلي... فهمست دون شعور:

دورا... أين أنت؟ بعد قليل يا دورا... سأكون...

نظرت من النافذ، ثم بدأت عيناي تودعان مرة أخرى هذا العالم اللئيم... وضعت المسدس فوق الطاولة، تأملته بصمت وحزن يمتزج بشيء من الفرح والخلاص.

إنها المرة الأولى في حياتي، التي أشعر فيها بهذا الفرح العظيم، فرح كعاصفة جبارة، هبّت في داخلي فجأة، ثم أخذت تقتلع أشواك الحزن الأسود من قلبي، وتكسر القيود الكئيبة التي تكفن روحي وأعصابي.

إنني فرح الآن، لأنني سأتحرر بعد قليل من حزني القديم، ومن همومي وانكساراتي السوداء.

عدت إلى جارنا، لكي لا أثير الشكوك.

- كيف حالك؟

- من الله بخير، وأنت؟

- أنا... زفت!

قال مستغرباً:

يا لطيف رغم أن وجهك لا يوحي بذلك؟!

- معك حق، وجهي لا يوحي بذلك، لكن قلبي أسود كالقطران، كل إنسان في هذه الدنيا هناك شيء ما بداخله، يعذّبه، وأحياناً يقتله.

- يا رب سترك.

حاولت أن أغير الحديث، لأن صديقي صمت في تلك اللحظة، وربما بدأ يفكر بشيء ما... فخفت أن يذهب، وبذلك تكون خطتي قد فشلت.

- ماذا تشرب؟

- لا داعي...

- لا يجوز... سأحضر كأسين من الشاي.

فكرت بالمسدس... إنه ينتظر...

- عن إذنك دقيقة.

دخلت الغرفة، ثم اقتربت من المسدس، أمسكته مرة أخرى، كانت قبضته باردة وسوداء كموتي، لقّمته بهدوء وحذر... ثم خطوت لأقف أمام المرآة.

سمعت وأنا أتأمل صورة وجهي، أصوات العصافير وهي تتشاجر وترفرف في الفضاء... ثم تناهى إلى سمعي موسيقا عذبة وحنونة، لأغنية أحبها:

«حكاية غرامي... حكاية طويلة...».

تذكرت دورا... فكبر الحزن في قلبي تلك اللحظة مليون مرة، لأنني لن أستطع بعد اليوم أن أتذكرها...

عدت إلى نفسي... حاولت طرد هذه الفكرة الجهنمية من رأسي، دققت في ملامح هذا الوجه الحزين، وبتلك العينين العاشقتين... فكرت قليلاً بأهلي وأصحابي... لكن دورا عادت لتملأ مخيلتي من جديد...

إن هذا الوجه الحزين الذي أحمله الآن بين كتفي منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً، سيرحل عن هذا العالم البائس والمنهزم بعد قليل... إنه لم يعد يحتمل قسوة الوجود، والهزائم التي أصابته منذ وُلد... تلك الهزائم والانكسارات التي لا تزال تطارده حتى هذه الدقيقة... لقد قرر أخيراً أن يترك هذا العالم المليء بالرعب والهلع، والقتل والدمار... والذي يسير بسرعة جنونية نحو الهاوية...

نظرت في المرآة مرة أخرى...

آه... كم أنا حزين!

صدقاً... كم أنا حزين وكئيب...!!

وضعت فوهة المسدس الأسود الكبير في رأسي ثم ضغطت... سمعت طقة خفيفة...

ضغطت أيضاً... وبقوة...

انتظرت للحظة...

لكن الرصاصة، لم تخرج!!

١٠ - فرصة أخرى...

فرحت... وحزنت في الوقت نفسه...

حزنت على أن الرصاصة لم تخرج، وفرحت بفرصة أخرى تتيح لي رؤية دورا مرة جديدة...

قلت: لعل فشلي هذا - في الانتحار - هو دليل واضح على أنني سألتقي بها ذات يوم...

سوف أبحث عنها مرة أخرى...

ذهبت إلى المدينة، جبت الشوارع والأزقة الضيقة... وقفت هناك، عند مدخل كل حارة... وقفت طويلاً... وتسكعت كثيراً تحت شرفات المنازل وأمام أبواب الحدائق العامة، لكنني

كنت أعود في النهاية إلى غرفتي، يكفّني الحزن والتعب، ويملؤني اليأس والانكسار.

سأبحث عنها من جديد...

وإذا وجدتها، فسوف أوقف سيارة تكسي، وسنهرب بسرعة.

سنهرب إلى أي مكان... سنكسر هذا الوحش الذي يعيش في داخلنا والذي يسمونه العادات والتقاليد.

ما دامت البشرية تتقدم، وتتطور... لماذا إذن لا يرافق ذاك التطور والتقدم تطور عاداتنا وتقاليدنا؟ لماذا لا نطور العادة الجميلة والحلوة، ونتخلى عن تلك التي تحرمنا من حرية التعبير، وحرية التغيير، وحرية الحب، والزواج؟!

أنا متأكد من أن دورا ستوافق على أن تهرب معي، لأنها تحبني... أنا متأكد من ذلك... لكنها خائفة من ذاك الوحش الذي يعيش من حولنا ويسكننا أحياناً... لكنني سأحاول إقناعها بأن نكون أنفسنا، ونقول حقيقتنا، ولو مرة واحدة في هذه الحياة.

١١ - انتظار...

ذات يوم، قلت لنفسي:

لماذا لا أذهب وأنتظرها في الأماكن التي كنا نلتقي فيها؟

لماذا لا أذهب إلى تلك الأماكن الحميمة، وأجلس فوق كرسي ما وأنتظر... بدلاً من البحث عنها في شوارع المدينة؟

لم يتعبني البحث عنها أبداً... إنما اكتشفت أن مراقبة الناس وأنا في حالة سكون تمنحني فرصة أكبر وأضمن لاكتشاف دورا... ولرؤيتها...

وبالفعل، ذهبت لأنتظر...

كانت السماء تمطر في ذاك الصباح الحزين، البارد، مطراً بلون الرماد، غسل وجه المدينة، ووجوه الأبنية والشوارع... ذهبت إلى المقهى الصغير، وحجزت كرسياً وطاولة مدة ١٢ ساعة يومياً... وأحياناً كنت أتأخر في العودة فأنام هناك، وأحلم...

هنا كنا نلتقي، في هذا المعبد الصغير، كنا نضحك من أعماقنا، ونفرح من أعماقنا... نتحدث عن الحياة، ونصلي من أجل أن يدوم حبنا الجميل... ويكبر...

أذكرها تماماً... كأنها أمامي الآن... بعينيها الجميلتين، ووجهها الوديع، الملائكي، ويدها الطرية المليئة بالحب والروعة.

داومت في المقهى حوالي أسبوع... دون جدوى، سألت النادل عنها ذات مرة، فقال إنه رآها آخر مرة حين كانت معي، ولم يرها بعد ذلك... أحزنني كلامه، وشعرت أنني على وشك الهاوية، ذهبت إلى مركز البريد، انتظرتها هناك تحت الأشجار، ومطر أيلول...

سرت في الشارع الممتد أمام البريد، والذي كنا نلتقي فيه للحظات، ومن ثم ننطلق إلى المقهى، أو إلى ذاك البيت الساكن بين الجبال والأشجار...

كنا نذهب إلى هناك، نغني ونرقص ونفرح.. وكأننا ولدنا في عالم جديد، وكانت تبكي دورا... تبكي أحياناً من شدة فرحها وسعادتها...

تراها كانت تبكي لأنها كانت تعرف تماماً أن هذه اللحظات السعيدة ستضيع منّا ذات يوم؟ ستضيع منّا، وإلى الأبد!

تراها كانت تعرف نهاية قصتنا... لذلك كانت تبكي!

سرت في الشارع الممتد أمام البريد، وتأملت وجوه الناس وأغصان الأشجار وغيوم أيلول الراكضة في سماء المدينة...

كم يحزنني هذا العالم!

إن ذاك الحب الجميل الذي أفرحني، هو نفسه الآن يعذبني... ويدميني.

«إن بعض الأشياء التي تفرحنا أحياناً، والتي ندافع من خلالها عن حقيقتنا وعن وجودنا، هي نفسها يستخدمها الآخرون في تعذيبنا، وفي قتلنا...» إن حبي الذي أضحكني ذات يوم، ها هو الآن يبكيني، ويعذبني، لكن شيئاً ما بداخلي يخفّف عني أحياناً هذا العذاب، وذاك الحزن، شيء يقول لي كل لحظة، إنني سأجد دورا ذات يوم...

لذا... لم أيئس من انتظاري، ولم يتعبني بحثي...

١٢ - حلم...

أصبحت لدي قناعة تامة أن الحلم من حق أي إنسان في هذه الدنيا... إنه الشيء الوحيد الذي يقوم به دون مراقبة أحد، إنه الفعل الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يحاسبك عليه، إنه مسألة شخصية جداً، يمكن أن أحاسب على الأفعال والأقوال

التي أقوم، وأتفوه بها... إنما الأحلام هي من حقي ومن مملكتي، وملكي، لا أحد يراها، ولا أحد يسمعها...

عندما كنت صغيراً، كنت أحلم كل ليلة ألف حلم وحلم... كانت جدتي تجلس إلى جانبي كل مساء، ثم تقص علي حكايات عن علي بابا والأربعين حرامياً، وعن الشاطر حسن، والسندباد البحري.

كانت تقول لأمي:

«إن مثل هذه القصص والحكايات ضرورية لطفل مشاغب مثلي، لا يهدأ، ولا ينام...»

بعض تلك الحكايات، كانت بالفعل تهدّئ من ضجيجي ومن مشاغبتي، وشيطناتي العابثة، والمشاكسة، كنت أسرح مع جدتي العجوز... هناك أرى نفسي، بين الجبال والوديان، وعند حافة الأنهار والبحيرات مع علي بابا... والسندباد البحري، والجد علاء الدين... ثم أنام وفي مخيلتي ألف صورة عن مستقبل قريب، أرى فيه نفسي وقد أضحيت شاباً، أحب الفتيات، وأضحي من أجلهن، وأدافع عن مشاعرهن وحقوقهن بضراوة...

وذات صباح ماتت الجدة... إنما حكاياتها بقيت تعيش في رأسي، كبرتُ، فكبر معي علي بابا، والشاطر حسن، والسندباد البحري...

في الأمس... رأيت دورا...

كنت أسير في الشوارع... فجأة رأيتها...

لم أصدق... هبط قلبي وارتفع... ركضت وأنا أنادي:

دورا... دورا...

وحين رأتني، ركضت هي أيضاً، وربما هبط قلبها وارتفع... تعانقنا طويلاً... أمام نظرات الناس الحائرة...

رأيت في تلك اللحظات ملايين الابتسامات ترفرف هنا وهناك لتملأ المدينة... وشعرت بفرح يغمرني، ويملأ روحي... أمسكت يدها ومشينا فوق الأرصفة، كعصفورين هربا فجأة من القفص، كان المطر يرقص حولنا ويغني، قالت دورا إنها أيضاً كانت تبحث عني...

قلت فجأة:

دورا... لقد قررت أن نهرب معاً...

قالت بفرح كأنها لا تصدّق:

يا إلهي... أكاد أطير من السعادة، أنا موافقة...

أوقفت سيارة تكسي، فتحت الباب، ثم حاولت الصعود مع دورا... وحين انغلق الباب فتحت عيني...

بقيت عدة دقائق في الفراش، أتأمل زجاج النافذة المرسوم عليه عينا دورا... وابتسامتها العذبة، أعدت الحلم مرة أخرى، وتذكرت تفاصيله بدقة متناهية... إن اهتمامي الشديد وتعلقي بهذه المخلوقة الساحرة جعلني أتذكر أصغر وأبسط الأشياء، التي كانت تصدر عنها...

ما أعظم الحب!

نهضت فجأة وأنا أقول لنفسي:

لعل دورا الآن هي أيضاً تبحث عني؟!

خرجت إلى الشارع... ورحت أدور مرة أخرى، هنا... وهناك...

١٣ - مجنون الحب...

لم أعد أحتمل...

لا أعرف تماماً كيف فقدت هذا المساء السيطرة على أعصابي التي حرقها الانتظار، وشواها الصبر والقلق...

وجدت نفسي فجأة في الشارع من جديد... وللحظة خاطفة، وسريعة كالبرق، تجمدت في مكاني، حين التمع شيء ما، كبير ومضيء، كان معلقاً في فضاء المدينة بين الغيوم الرمادية... التمع داخل عيني الكئيبتين، الطاعنتين في الحزن والضياع... التمع بشدة، كأنه يريد أن يذكرني بشيء ما، حميم وطيب، يشبه جمال الروح، وغلاوة الدم.

انتابني تلك اللحظة، إحساس مرير بهزيمة قاسية، وشعور موحش بالغربة عن نفسي، وعن هذا العالم الذي بدأ يتحطم الآن ويتداعى... كانت لحظة عجيبة، مليئة بالخوف والدهشة، حرّكت بداخلي العالم، ودمرت الأحلام المتبقية في رأسي.

لقد رأيت القمر!

يا إلهي!

لم أصدّق...

رأيته مكتملاً، كأنه في عرس، يضيء وجه المدينة بضوء فضي ناعم، ويملأ الحارات والأزقة الضيقة بأثواب بيضاء، شفافة، ويغسل قمم الأشجار والجبال البعيدة بالسحر والروعة.

لكن كل ذلك اختفى فجأة، وظهرت صورة دورا مرسومة على سطح القمر الكبير...

لقد قالت لي دورا في آخر لقاء:

«... تذكرني كلما التمع في عينيك ضوء القمر...».

وفجأة... سمعت صوتي يرتفع نحو السماء:

دورا... دورا... ا... ا...

ثم أحسست بقدميّ تركضان في شوارع المدينة...

كانت السماء كبيرة في تلك الأمسية الحزينة من خريف شاحب، مريض، وكانت الغيوم القادمة من خلف الجبال، سوداء، معتمة، محشوة ببروقٍ وانفجارات عديدة...

* * *

فهرس

الصفحة

الفئران ٥

القفص ١٠

ذاك الكرسي الصغير ١٥

الغول ٢٠

الفخّ ٢٤

الوحل ٣٠

برميل مازوت ٣٦

الغولة ٤١

انتظار ٤٨

الذئب الأزرق ٥٢

وجوه ٥٨

الصفحة

رجولة ٧٤
عمل إضافي ٧٦
طفولة ٨٢
ملك الجّن الأحمر ٨٧
رجل في الظّلام ٩٤
ليل المدينة ٩٨
تهريب ١٠٤
أموات فوق الأرض ١٠٨
مواء رجل ١١٥
الوحوش ١٢٢
الحمار ١٢٧
ليلة عاصفة ١٣١
هناك تحت الجسر ١٣٦
الطّيور ١٤١
جن وشياطين ١٤٥

الصفحة

فزّاع الطيور ١٤٩
مستودع الجثث ١٥٦
الجثة المعلّقة...!! ١٦٠
قوي... كالحب... ..... ١٦٦
ابن حرام ١٧١
ثلج الليالي المتأخّرة... ..... ١٧٥
نهايات... ..... ١٨١
اعترافات مُتسكّع دمشقي ١٨٧
فهرس ٢١٩

سُهيل الشعَّار

- قاص وكاتب سوري.
- ولد في لبنان عام ١٩٧٢م.

صدر له :

- حب وعصافير قصص اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠١م.
- الذئب الراكض في المدينة قصص وزارة الثقافة ٢٠٠٢م.
- غابة البلوط قصص وزارة الثقافة ٢٠٠٤م.
- ليل المدينة قصص اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٦م.
- العناكب قصص اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٩م.
- الرماد قصص الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٢م.
- وميض الجمر «نصوص خارج الأشكال» دار هدوء ٢٠١٧م.
- صفوة الصفوة من المواعظ والأمثال والحكمة دار الغانم ٢٠١٧م.
- صفوة الصفوة من المواعظ والأمثال والحكمة. طبعة ثانية (النسخة الكاملة) دار الغانم ٢٠١٩م.

حاصل على عدة جوائز أدبية منها:

١ - الجائزة الأولى للقصة القصيرة لاتحاد الكتاب العرب فرع السويداء، عن قصته: نجم أزرق بعيد.

٢ - جائزة القصة القصيرة لمهرجان المزرعة الأدبي عن قصته: انتظار.

٣- جائزة ابن طفيل للقصة القصيرة لمهرجان السويداء الأدبي عن قصته: الحصان.

٤ - جائزة BBC للقصة العربية عن قصته: الفئران.

- ينشر الكاتب قصصه ونصوصه الأدبية في الصحف والمجلات العربية.

٢٠٢٢م

يمكننا القول إنّ قصص سهيل الشعار تمثّل حالة من الدهشة والألم واللوْعة والفراق والحب والموت والجنون.

قصص وحكايات مشغولة بإحساس عالٍ، وبقلم ابتعد عن الحشو والزوائد، ولجأ إلى التّكثيف والإشارة والتّلميح، حيث تختفي في بطون قصصه أهداف ومعان عالية الدّلالة مثلما يختفي الفولاذ والحديد في هياكل المباني العالية، ومثلما يختبئ السّكر في التفاحة، والعطر في الوردة.

نهايات صادمة

ومفاجآت غير متوقّعة

وأحداث ممزوجة بموهبة استطاعت تحويل الحدث العادي والمألوف إلى حدث غير عادي وغير مألوف.

ISBN 978-9933-0-1452-0

9 789933 014520

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٢م

سعر النسخة ٦٠٠٠ ل.س أو ما يعادلها